د. سلوى بالحاج صالح ـ العايب

«دثّريني... يا خديجة»

دراسة تحليلية لشخصية
خديجة بنت خويلد





دار الطليعة - بيروت

«دثّريني.. يا خديجة»

- الموضوع مهمّ عن خديجة لأنه يتعلّق بالدراسات المحمدية، ولأنه يثير عدة مشاكل عن حال مكة قبيل الإسلام من مثل التجارة، وضعية المرأة الشريفة، الوضع الديني... الخ.
- الأطروحة الأساسية من وجهة تاريخية في هذا الكتاب هي أن خديجة لعبت دوراً ما في ظهور الإسلام وتثبيت نبوّة محمد... فقد كانت لها معرفة بالتوحيدية والملائكة ومفهوم النبوّة. وهذا ما نستنتجه أيضاً وبصورة منطقية من حيثيات معاشرتها للنبيّ من البعثة إلى وفاتها. فخديجة وكذلك وسطها العائلي كانا يُعيران اهتماماً للقضايا الدينية، وما كانت بعثة محمد لتثير التعجب أو التكذيب في ذهنها...
- وعلى كلٍ، فكتاب الدكتورة سلوى بالحاج صالح يثير تساؤلات عدة ويطرح إشكاليات تاريخية مهمّة وعميقة.

هشام جعيط

دارُ الطّليعة للطّباعة وَالنشر
بيروت

بيروت ـ لبنان
ص. ب ١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس ـ ٣٠٩٤٧ ـ ١ ـ ٩٦١

الطبعة الأولى
آذار (مارس) ١٩٩٩

الفهرس

تقديم

بقلم: الدكتور هشام جعيط

هذا الكتاب آخر ما صدر عن الباحثة اللاّمعة الدكتورة سلوى بالحاج صالح، وقد كتبت من قبل رسالتها عن المسيحية العربية التي شهدت صدى واستحساناً.

الموضوع مهمٌ عن خديجة لأنه يتعلّق بالدراسات المحمّدية، ولأنّه يثير عدّة مشاكل عن حال مكّة قبيل الإسلام من مثل التجارة ووضعية المرأة الشريفة والوضع الديني.

الأطروحة الأساسية من وجهة تاريخية في هذا الكتاب، هي أنّ خديجة لعبت دوراً ما في ظهور الإسلام وتثبيت النبوّة. وإذا نحن صدّقنا المصادر لا في تفاصيلها وإنّما في مجملها لبدا واضحاً أنه كان لها معرفة بالتوحيدية والملائكة ومفهوم النبوّة، وهذا أيضاً نستنتجه منطقيّاً من معاشرتها للنبي من البعثة حتى موتها. ومن الممكن أنها تأثّرت بابن عمّها ورقة بن نوفل، على أنّ هذا الشخص الذي تثبته كتب الأنساب لربما لم يكن موجوداً لكثرة تناقضات مصادرنا.

واعتقادي أنّ عمر خديجة لمّا تزوّجت لم يكن يناهز الثلاثين إلاّ ببضع سنين، وهو يقترب من سنّ محمّد عندما بُعث: هو سنّ الجيل أو

«العمر» كما يذكر القرآن. وممّا لا شك فيه أنّ خديجة أخرجت محمّداً من الفاقة بفضل ثروتها، لكن لا ندري هل كوّن لنفسه مالاً من التاجر ببضاعتها؟ .هذا أيضاً يلمّح إليه القرآن بوضوح.

إذن، ترى الباحثة أنّ خديجة ووسطها العائلي كانا يعيران اهتماماً للقضايا الدينية، وأنّ بعثة محمّد لم تكن لتثير التعجّب والتكذيب في ذهن خديجة. وقد كانت بالطبع أعلم النّاس به في تفكيره وأخلاقه. لكنّ النّبي تفكّر في الوجود كما يدعو إلى ذلك القرآن أيّ فرد ولأنه كان «على خلق عظيم».

وإذا كانت خديجة هي التي حرّرت محمّداً من الحاجة المادية، فقد لعبت دور الرفيقة ودور الأمّ، ووجد محمّد جوّاً من الدّعة جعله ينطلق إلى تفكيره وتأمّله، وكذلك جوّاً من الحنان والمحبّة والتفهّم. وكان هذا نعمة كبيرة من اللّه.

كما كانت فترة زواجه من خديجة، التي تناهز ربع القرن حسب المصادر، أو خمس عشرة سنة ونيف حسب رأيي، فترة أساسية حيث شهدت البعثة وتركيزها تماماً. وهي بالتالي الزيجة المثلى والأهمّ في حياة محمّد؛ وأن يقول القرآن بخصوص الزواج ﴿وجعل بينكم مودّة ورحمة﴾، فهذا ينطبق تماماً على علاقة محمّد بخديجة. لقد كان زواجاً أحادياً، كما لم يرضَ النّبي أن يتزوّج عليّ على فاطمة. ثم في العشر سنين الأخيرة، تزوّج النّبي كثيراً. وفي هذا إشكال ليس من السهل حسمه في هذا الاتجاه أو ذاك.

وعلى كلّ، فكتاب الدكتورة سلوى بالحاج صالح يثير التساؤل ويطرح إشكاليات تاريخية مهمّة وعميقة.

قال أبو جعفر:

«حدّثني أحمد بن عثمان المعروف بأبي الجوزاء، قال: حدّثنا وهب بن جرير، قال: حدّثنا أبي، قال: سمعت النعمان بن راشد، يحدّث عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أنّها قالت: كان أوّل ما ابتدىء به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تجيء مثل فلق الصبح، ثم حبّب إليه الخلاء، فكان بغار بحراء يتحنّث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى أهله، فيتزوّد لمثلها، حتّى فجأه الحقّ، فأتاه، فقال: يا محمّد، أنت رسول الله! قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثم زحفت، ترجف بوادري، ثم دخلت على خديجة، فقلت: زمّلوني، زمّلوني! حتّى ذهب عنّي الرّوع، ثم أتاني فقال: يا محمّد، أنت رسول الله. قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل، فتبدّى لي حين هممت بذلك، فقال: يا محمّد، أنا جبريل، وأنت رسول الله. ثم قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال: فأخذني فغتّني ثلاث مرّات: حتّى بلغ منّي الجهد، ثم قال: ﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق﴾، فقرأت. فأتيت خديجة. فقلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها خبري، فقالت: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً والله إنّك لتصل الرّحم، وتصدّق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحقّ. ثمّ انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد، قالت: اسمع من أبن أخيك، فسألني

فأخبرته خبري، فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني فيها جذع! ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك! قلت: أمخرجيّ هم؟ قال: نعم، إنّه لم يجىء رجل قطّ بما جئت به إلاّ عودي، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً»؛

تاريخ الطبري

(الجزء الثاني)

مقدّمة

خديجة بنت خويلد الأسديّة، القرشيّة، صاحبة «الشرف الكبير» و«النسب التليد»، و«التاجرة» التي كانت تستأجر الرّجال لخدمتها وتضاربهم بمالها. . .

لقّبها عرب «الجاهليّة» بـ «الطاهرة» وسيلقّبها المسلمون بـ «أمّ المؤمنين».

اعتبرها الحديث مع مريم بنت عمران، أمّ عيسى «المسيح»، خير نساء السّماء والأرض[1]. كما اعتبرها، إلى جانب ابنتها فاطمة ومريم بنت عمران وآسية زوجة فرعون، منقذة موسى، «أكمل النّساء».

تزوّجت محمّد بن عبد الله رغم فقره. اختارته بنفسها، وعرضت عليه الزواج بها، على غير العادات والتقاليد. كانت «منّة الله» عليه. . . ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾[2].

كانت الملاذ بالنسبة إلى محمّد منذ أن ظهرت بوادر البعث: جبرائيل مبعوث الله «يغتّه» في أوّل لقاء معه حتّى ظنّ أنّه الموت. وهي تدثّره إذ استصرخها أن دثّريني يا خديجة!!

---

(١) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، ج٤، ص ٢٣٠، باب «تزويج النبيّ خديجة وفضلها»؛ مسلم، كتاب فضائل الصّحابة، باب «فضائل خديجة أمّ المؤمنين»، حديث رقم ٢٤٣٠.

(٢) سورة الضحى، ٩٣/٨ .

«إنّ الأبعد لشاعر أو مجنون»، قال لها محمّد الموحى إليه.
«أبشر... واثبت... إنّي لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمّة»، تجيبه خديجة.

«أنذر عشيرتك»، أي أجهر بدعوتك، يأمرالله نبيّه محمّداً. فتخرج خديجة من دارها وتصلّي خلفه أمام الكعبة على مرأى ومسمع من قريش الوثنيّة!

تلك خديجة: تسند وتثبّت وتدعو محمّداً أن أمضي إلى النهاية في ما أوكل إليك.

قضت معه أصعب فترات البعث، من نزول الوحي (٦١٠م) إلى العام العاشر بعده (٦١٩ / ٦٢٠م) الذي يصادف تاريخ وفاتها، وهو ما يقارب نصف فترة الرّسالة.

اجتمع حولها المسلمون «أمّاً لهم»، فما ذُمّت وما انْتُقدت وما اخْتُلف في شأنها بل حافظت على مكانتها بينهم كالهرم الشّامخ.

خديجة التي تمثّل كلّ هذا لدى المسلمين، هل استوفت حقاً حظّها من الدّراسة والبحث؟ هذا السؤال يبقى عالقاً في الذهن كلّما اطلع المرء على ما ورد في شأن هذه المرأة من روايات الرّواة وأخبار الإخباريين والمحدّثين والمؤرّخين قديماً وحديثاً.

فمن تكون خديجة هذه: عدا كونها أسديّة قرشيّة، شريفة وثريّة، اختارت لنفسها محمّداً زوجاً وأعطته الولد وآزرته حينما بُعث «مبشّراً ونذيراً»؟ أهي هذا فقط أم هناك في التراث ما حجب عنّا بعض الجوانب من شخصيتها وخصوصاً في علاقتها بمحمّد والرّسالة؟

وإذا كان هذا صحيحاً فما هي أسبابه؟ ثمّ، وهذا هو الأهمّ، هل من إمكانيّة للتصحيح، تصحيح ما أُهمل أو طُمس؟ وهنا يأتي في الحقيقة

دور المؤرّخ الذي لا يقف عند نقطة معيّنة ويقول إنّها نقطة النهاية. فالبحث والتمحيص يبقيان الشّغل الشّاغل للمؤرّخ من أجل إعادة رسم صورة التاريخ بأكثر ما يمكن من الواقعيّة والموضوعيّة دون إهمال لأيّ زاوية من الزّوايا، في انتظار أن يظهر من يزيدها دقةً ووضوحاً أو يقلبها رأساً على عقب ويعيد رسمها بفضل ما توافر له من معطيات وإمكانيات جديدة لم تتوافر لغيره.

وإنّ التاريخ العربي الإسلامي لهو من المجالات التي لا تزال قابلة بشكل كبير للدرس وإعادة الدرس، لإعمال الفكر فيها وإعادة إعماله باستمرار لضخامة معطياته وثرائه أوّلاً، ولجدّة الاهتمام به نسبيّاً في أزمنتنا المعاصرة ثانياً، ولحاجته إلى الدراسة من أكثر من زاوية ثالثاً. خصوصاً وأنّ نظرتنا إلى هذا التاريخ لا تزال تغشاها، في العديد من المواطن، غشاوة الماقبليات العقائديّة. فترانا في عديد الأحيان نكرّس جهدنا، لإعادة رسم الصورة لا كما كانت في الواقع أو على الأقل بما يُقرّبها منه أكثر ما يمكن، وإنّما لتبرير الصورة التي وجدنا، أو ترميمها، أو إضافة أشياء جزئيّة إليها، دون المساس بجوهرها، خشية أن تتبدّل علينا فلا نجد فيها أنفسنا، كما نتصوّرها أو تُصوَّر لنا.

وما دام موضوعنا يتعلّق بخديجة، فإنّنا نعتقد أنّ لتأثير المقدّس[1] على التاريخ دوراً في الحدّ من إمكانيات سبر أغواره. فالمقدّس، حسب رأينا، هو الذي قد يكون حجب عن الرّواة والمؤرّخين ضرورة التعمّق في شخصيّة خديجة ودورها. وهو الذي قد يفسّر أيضاً إحاطتهم السطحيّة بكل الأحداث والوقائع التي حفّت بحياتها. ولا سبيل هنا إلى إثارة

(١) نقصد بـ «المقدّس» قدسيّة الرّسالة: الدين دين الله ومحمّد مبعوث الله...

اهتمام الرّواة والمؤرّخين بشخصية عائشة مثلاً للردّ علينا بأنّهم أوفوا خديجة حقها، ولو كان لديهم ما يقولونه لقالوه. فالمرأتان لم تعايشا محمّداً في الظّروف نفسها.

فقد واكبت خديجة فترة التأسيس الأولى، فترة وضع المبادىء العقائدية العامّة والموجّهة، وكان «المتحدّث الفاعل الأساسي» فيها هو الله لأنّ المبادىء مبادئه والرّسالة رسالته، ومحمّد ليس إلاّ متلقيها ومبلّغها من وجهة نظر العقيدة الإسلامية طبعاً.

أمّا عائشة فإنّها واكبت الفترة المدنيّة، فترة التأسيس السيّاسي، الحافلة بالأحداث السيّاسية والإجتماعيّة والعسكريّة، التي يمثّل الإنسان المتشبّع بالعقيدة الجديدة «الفاعل الأساسي» فيها، فيكون التاريخ تاريخه، يُروى ويُشرح.

ولقد كانت عائشة عنصراً فاعلاً في هذا التاريخ سواء باعتبارها «حبيبة النبيّ» المطّلعة أكثر من غيرها على سيرته، فترويها وتحدّث عنها، أو باعتبارها صاحبة موقف في زلزال سياسي هائل (الفتنة) فيُروى عنها ويُتحدّث بها.

خديجة إذن عاشت في فترة طغى فيها المقدّس على أي شيء آخر. وفي تاريخ المقدّس، عندما يظهر في زمن معيّن «فعل» من «أفعال» الله، مثل بعث نبيّ أو رسول، فإنّ كلّ «الأحداث» التي تحفّ بحياته سواء كانت هذه الأحداث واقعيّة أو من استنباط المخيال الشعبي، تتحوّل إلى رموز تنصهر كلّها في إطار مشيئة رَسَمَ «الله» خطواتها من البداية رسماً مضبوطاً. وهو ما يميّزها عن مشيئة البشر العاديين، غير المصطفين للنبوّات والرّسالات.

لقد «أصطفي» محمّد للنبوّة والرّسالة. وهكذا تحوّلت حياته كلّها منذ مولده إلى سلسلة من الرّموز المترابطة التي تعدّه، الواحد بعد الآخر، لتلك النبوّة ولتلك الرّسالة. وبهذه الصوّرة أصبحت خديجة التي التقاها في فترة من فترات حياته حلقة من حلقات تلك السّلسلة ورمزاً من تلك الرّموز، فأصطبغ ذلك اللّقاء بهالة غيبيّة. وقد فهم الإخباريّ والمؤرّخ القديم أنّ دوره لا يتجاوز في هذه الحالة الإخبار عن خديجة وسرد بعض التفاصيل عنها لتأكيد تلك الرّموز بكلّ ما يتطلّبه ذلك أحياناً من مغادرة الواقع إلى عالم الخيال، وهو أمر جائز طالما أنّ الفاعل هو الله، صاحب القدرة المطلقة «الذي لا يخضع فعله لقانون أو ناموس طبيعي أو تاريخي اجتماعي» وفقاً للصفات التي وُصف بها.

لقد أصبحت خديجة جزءاً من «ميتولوجيا» نشأة نبوّة محمّد وحيثيّة من حيثياتها التي لا يمكن عزلها عنها، والتي لا تكتسي أهميّة أيضاً إلاّ في علاقةٍ بها[1].

وتلك هي إشكاليّة المقدّس الأزليّة. فهو في الوقت الذي يضفي على موضوعه هالة فوق طبيعيّة، ترفعه من زاوية ما إلى أعلى المراتب، جالبة إليه الإجلال والتعظيم، يسحب منه من جهة أخرى «إرادة الفعل»، أو «الفعل الإرادي» المنطلق من ذاته. فتصبح الأفعال، أفعال المقدّس،

(١) نلاحظ ذلك في معظم الرّوايات التي تعلّقت بخديجة، من ذلك رواية المدائني عن ابن عبّاس أنّ نساء مكّة اجتمعن في عيد لهنّ في الجاهليّة فتمثل لهن رجل، فلمّا قرب نادى بأعلى صوته: يا نساء مكّة.. إنّه سيكون في بلدكنّ نبي يقال له أحمد. فمن استطاع منكنّ أن يكون زوجاً له فلتفعل. فحصبنه إلاّ خديجة، فإنها غضت على قوله ولم تعرض له. ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج٤، ص٢٨٢ (ترجمة خديجة).

ويصبح قيام الكائن الإنساني بها تنفيذاً لإرادة هذا المقدّس الخالق لكلّ فعل والمتحكّم فيه. وهو ما يحجب في نهاية الأمر الدّور التاريخي الحقيقي لهذا الكائن ويطمس فعله الشخصي في الأحداث وتوجيهها. ولولا هذه النظرة التي سيطرت على الإخباريين والمؤرّخين لكنّا ربّما عرفنا عن خديجة وعن الإرهاصات الأولى للبعث أكثر ممّا عرفنا.

ونحن لا نشكّ في أنّه ممّا يزيد الأمر تعقيداً، حتّى من زاوية رواية المقدّس، وجود فراغ كبير في التاريخ العربي، بالنسبة إلى المرحلة التي سبقت الإسلام كما بالنسبة إلى المرحلة المكيّة من تاريخ الإسلام. وهذه الثغرة لاحظها جلّ الدّارسين والباحثين. فبقدر ما نجد مادّة على غاية من الكثرة والتنوّع تعنى بالفترة المدنيّة وما تلاها، تشحّ تلك المادّة بالنّسبة للفترتين المذكورتين وتنحصر في شذرات متفرّقة في النّص القرآني خصوصاً وبعض كتب القدامى.

ولا أخفي أنّ كلّ هذه الأسباب مجتمعة هي التي حفزتني على اقتحام موضوع خديجة والسّفر معها فترة من الزّمن، تحدوني رغبة جامحة في سبر أغوار شخصيتها لإلقاء الضوء على بعض الجوانب منها، لأنّني غير مقتنعة بأنّ خديجة هي فقط ما قيل عنها.

سوسة، نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٨.

كلمة حول المصادر والدّراسات التي اهتمّت بخديجة

من المفيد، قبل الخوض في صلب الموضوع، إلقاء نظرة على المصادر والدّراسات التي تطرّقت إلى خديجة لنقف على الكيفيّة التي تناولتها بها والنتائج التي توصّلت إليها. ويمكن القول إنّه لا يخلو مصدر من مصادر الإخبار أو التاريخ للقدامى والمتأخّرين من ذكرٍ لخديجة. فقد ذكرتها كتب السّيرة والطّبقات والحديث والتّاريخ العام والنّسب وحتّى الأدب. لكن ما نلاحظه أنّ خديجة لم تُخصّ بمؤلّف وقلّما خُصّت بفصل في تلك الكتب، بل جرى التطرق إليها ضمن محاور اهتمامات مؤلّفيها.

ثمّ إنّ معظم ما وصلنا من أخبار في هذه الكتب عن خديجة اقتبسه أصحابه من ضمن ما اقتبسوا من مصادر أساسيّة خُصّصت لزوجات الرّسول[1]. وفي هذا السياق يُمكن ذكر:

- هشام بن محمّد بن السّايب الكلبي (ت: ٢١٨ هـ):
  - كتاب أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلم.
- أبو عبد الله محمّد بن عمر الواقدي (ت: ٢٠٧ هـ):
  - كتاب أزواج النبيّ.
- أبو الحسن عليّ بن محمّد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني (ت: ٢١٥ هـ):

(١) ذكر ابن النّديم هذه المصادر في الفهرست، ص ص ١٤١ ـ ١٤٢، ١٥٣.

- كتاب أزواج النبيّ.

● أحمد بن الحارث الخزاز (ت: ٢٥٨ هـ):

- كتاب مغازي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وسرياه وذكر أزواجه.

ولقد أخذ عن هؤلاء الطبري في تاريخه، والذهبي في سيرة أعلام النّبلاء، وابن حجر في كتاب الإصابة في تمييز الصّحابة، وابن سعد في الطبقات، والبلاذري في أنساب الأشراف، والنويري في نهاية الأرب، وآخرون.

وبشكل عام فقد جاء ذكر خديجة لدى الإخباريين والمؤرّخين:

- أوّلاً: ضمن سيرة محمّد (من ذلك سيرة ابن هشام المتوفى فيما بين سنتي ٢١٣ و٢١٨هـ)[١] باعتبارها إحدى زوجاته وعنصراً من عناصر مسيرته التي «هيّأها له الله». فقد خصّص ابن هشام سبع صفحات لخديجة، وهو يذكر نسبها وزيجاتها قبل محمّد وتجارتها وأخلاقها ثمّ تعرّفها على محمّد وتكليفه بتجارتها فزواجها منه ومؤازرتها له في سني البعث الأولى. كما يذكر علاقتها بابن عمّها ورقة بن نوفل الذي تنصّر، حسب اعتقاده، بعد أن «ملّ عبادة الأوثان».

- ثانياً: ضمن كتب الحديث ولا سيّما صحيح البخاري الذي خصّ خديجة بباب وسمه بـ: «تزويج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خديجة وفضلها»، وصحيح مسلم الذي خصّها بباب عنوانه: «باب فضائل خديجة أمّ المؤمنين».

- ثالثاً: ضمن كتب الطّبقات والتراجم بوصفها صحابيّة. وقد تحدّثت أهمّ كتب الطّبقات والتراجم عن خديجة ضمن ذكر «السّابقين

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ص ١٩٨ - ٢٠٤.

الأوّلين في الإسلام»[1] أو في طبقة «تسمية النساء المسلمات والمهاجرات»[2]. في حين ذكرها المتأخرون في نطاق ترتيب ألفبائي خاص بالنساء المسلمات[3].

ـ رابعاً: ضمن كتب النسب ومنها: نسب قريش للمصعب الزّبيري، والمحبّر لابن حبيب، وجمهرة النّسب لابن الكلبي. وإذا كان ابن الكلبي ذكرها ضمن عشيرتها (بنو أسد بن عبد العزّى بن قصي)[4]، فإنّ المصعب الزّبيري ذكرها في نطاق حديثه عن ولد عبد الله بن عبد المطّلب، أي في علاقةٍ بزوجها محمّد. كما ذكرها عند حديثه عن ولد عبد العزّى بن قصي وبالتحديد ورقة بن نوفل، ابن عمّها[5]. أمّا ابن حبيب في المحبّر فقد ذكرها في سياق حديثه عن محمّد وأزواجه وأسلافه[6].

ـ خامساً: ضمن كتب التّاريخ العام. ومن بين من ذكرها من القدامى، ابن قتيبة[7] والطّبري[8]، ومن المتأخّرين ابن كثير[9]، وقد جمعوا كلّ أخبار خديجة ممّا ورد في كتب السيرة (خاصّة عن ابن إسحاق

---

(١) الذّهبي، سيرة أعلام النبلاء، ج١، ص ٩٩.
(٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٨، ص ص ١٤ ـ ١٩.
(٣) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٤، ص ص ٢٨١ ـ ٢٨٣؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٧، ص ص ٧٨ ـ ٨٥، ترجمة رقم ٦٨٦٧.
(٤) ابن الكلبي، جمهرة النّسب، ج١، ص ٧٥ وما بعدها.
(٥) المصعب الزبيري، نسب قريش، ص ص ٢٠ ـ ٢١، ٢٠٧، ٢٣٠، ٢٣٤.
(٦) ابن حبيب، المحبّر، ص ص ٧٧ ـ ٧٩، ٩٩ ـ ١٠٠، ٤٥٢.
(٧) ابن قتيبة، المعارف، ص ص ٥٨ ـ ٥٩.
(٨) الطبري، التاريخ، ج٢، ص ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢، ٢٩٨ ـ ٣١٣.
(٩) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، ص ص ٢٩٣ ـ ٢٩٨.

وابن هشام) والنسب عن حياتها وزيجتها من محمّد وموقفها من البعث وما ذكر عنها في الحديث.

وتجدر الملاحظة أنّ الأساسيّ في كلّ ما ذُكر من أخبارٍ حول خديجة، بقطع النّظر عن صنف الكتب، إنما ينهل من ابن إسحاق والواقدي وهشام الكلبي دون درسٍ أو تحليل.

ولا نعثر في المكتبة العربيّة أو الأجنبية على دراسات ذات أهميّة، مخصصّة لخديجة. فالمتوافر منها، على قلّته، هو أوّلاً ذو طابع «إسلاموي»، بعيد عن الموضوعيّة لا يتجاوز اهتمامه بما جدّ في حياة خديجة من أحداث إلاّ في حدود كونه يصلح لتفسير «الرّسالة المحمّديّة، فيخرج به أصحابه من حظيرة الواقع ليلجوا به عالم الميتافيزيقا تمجيداً للرّسالة وتثبيتاً لها[١]. أمّا الدراسات الجديّة فهي مختصرة جدّاً لا تفي بالحاجة. وهي غالباً ما تكرّر أشياء قديمة ومتعارفاً عليها. فـ الموسوعة الإسلامية خصّت خديجة بمقال لا يتجاوز العمود للتّعريف بها ليس إلاّ[٢]. وفي مجلّة العالم الإسلامي *The Moslem World*، العدد ٢٦، الصادر سنة ١٩٣٦، اعتنى الباحث إدوارد جورجي Edward Jurgi بديانة خديجة قبل الإسلام في مقال لا يتجاوز الثلاث صفحات بعنوان: «خديجة زوجة محمّد الأولى» «Khadija Mohamed's first wife». وفيما عدا ذلك لا نعثر في أهمّ المكتبات على ما يشفي الغليل بل وحتّى على النزر القليل الذي يفيد.

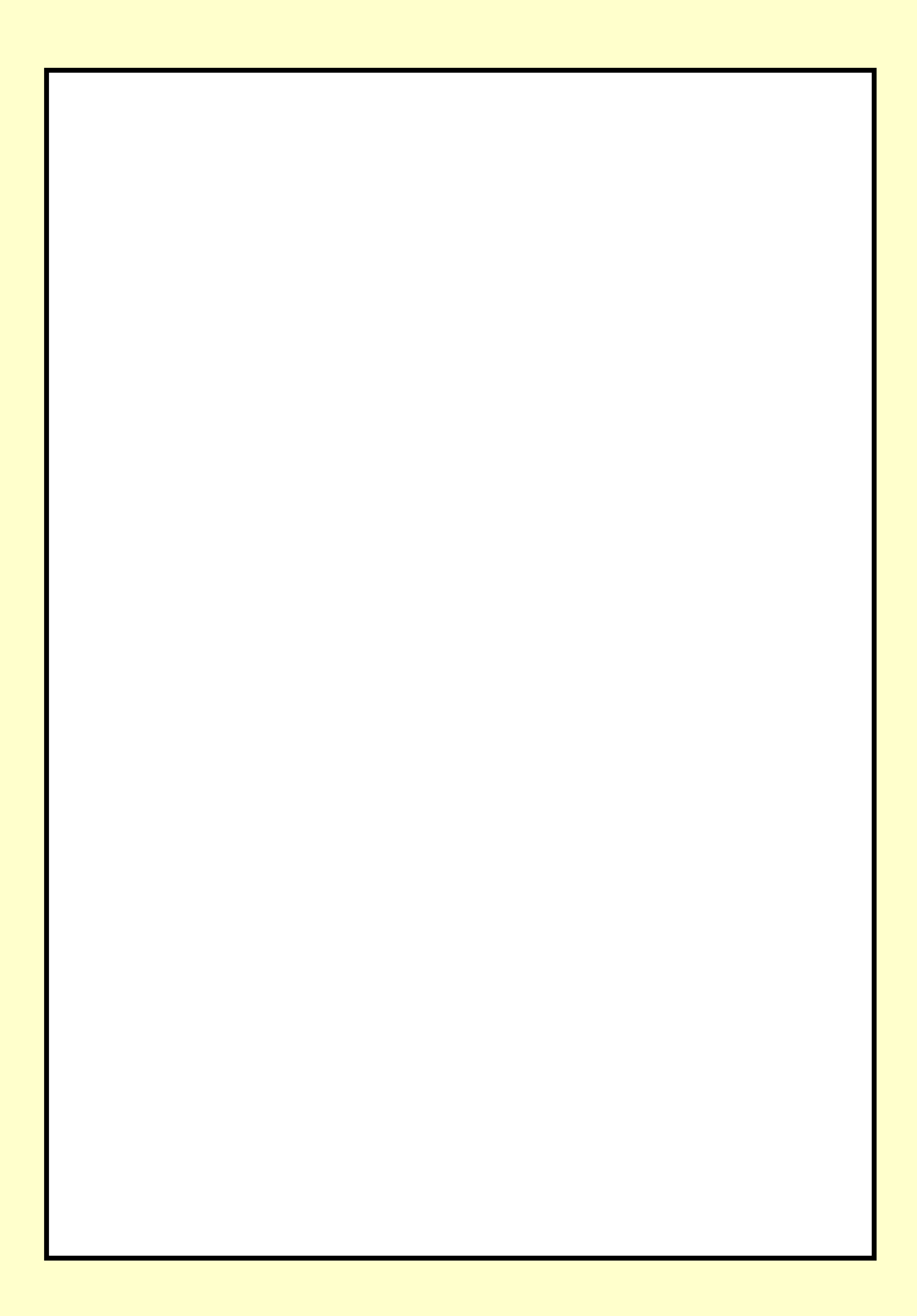
(١) على سبيل المثال نذكر كتابين حول خديجة: الأوّل لعبد السّلام العشري، خديجة بنت خويلد، القاهرة، ١٩٦٠؛ والثاني لعبد المنعم محمّد عمر، خديجة أمّ المؤمنين، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤.

(٢) *E.I.*, art «Khadija», T. IV, p. 930.

إنّنا لا نعتقد أنّ خديجة غير جديرة بأكثر من هذا الاهتمام. فالنّظر إلى حياتها من زاوية غير الزاوية التي نُظر منها إليها لحدّ الآن (والتي سبق أن تحدّثنا عنها، أي المرأة الشريفة المتخلّقة التي ساندت محمّداً وآزرته) من شأنه أن يساعدنا على سبر أغوار هذه الشّخصيّة التي قد يكون الدّور الذي لعبته أخطر وأهمّ ممّا تراه النّظرات التّبسيطيّة، المتأثّرة بالمقدّس أو بالنظرة السائدة في المجتمع الذكوري إلى المرأة أو التي كسلت عن البحث لقلّة المعطيات المتوافرة.

إنّ الاهتمام بخديجة كشخصيّة مستقلّة بذاتها والوقوف على العوامل التي أثّرت فيها ونحتتها سواء منها وضعها كتاجرة في المجتمع المكّي القرشي أو محيطها العائلي وما كان لبعض أفراده المقرّبين إليها من اهتمامات دينيّة وسياسيّة قد يوصلنا إلى الوقوف على دور لها غير الدور الذي أوكل إليها فيما هو متوافر من مصادر ومراجع، في علاقتها بمحمّد ورسالته.

وبطبيعة الحال، سيتأثّر عملنا مثل عمل غيرنا بقلّة المعلومات التّاريخيّة سواء ما يتعلّق منها بخديجة بالذات أو بالفترة التي عاشت فيها. لكن دورنا سيتمثّل بالخصوص في إعادة استقراء المعطيات الموجودة حسب أهميتها من زاوية تاريخيّة موضوعيّة لصياغة بعض الاستنتاجات، وإنْ تعذّر ذلك فبعض الفرضيات.

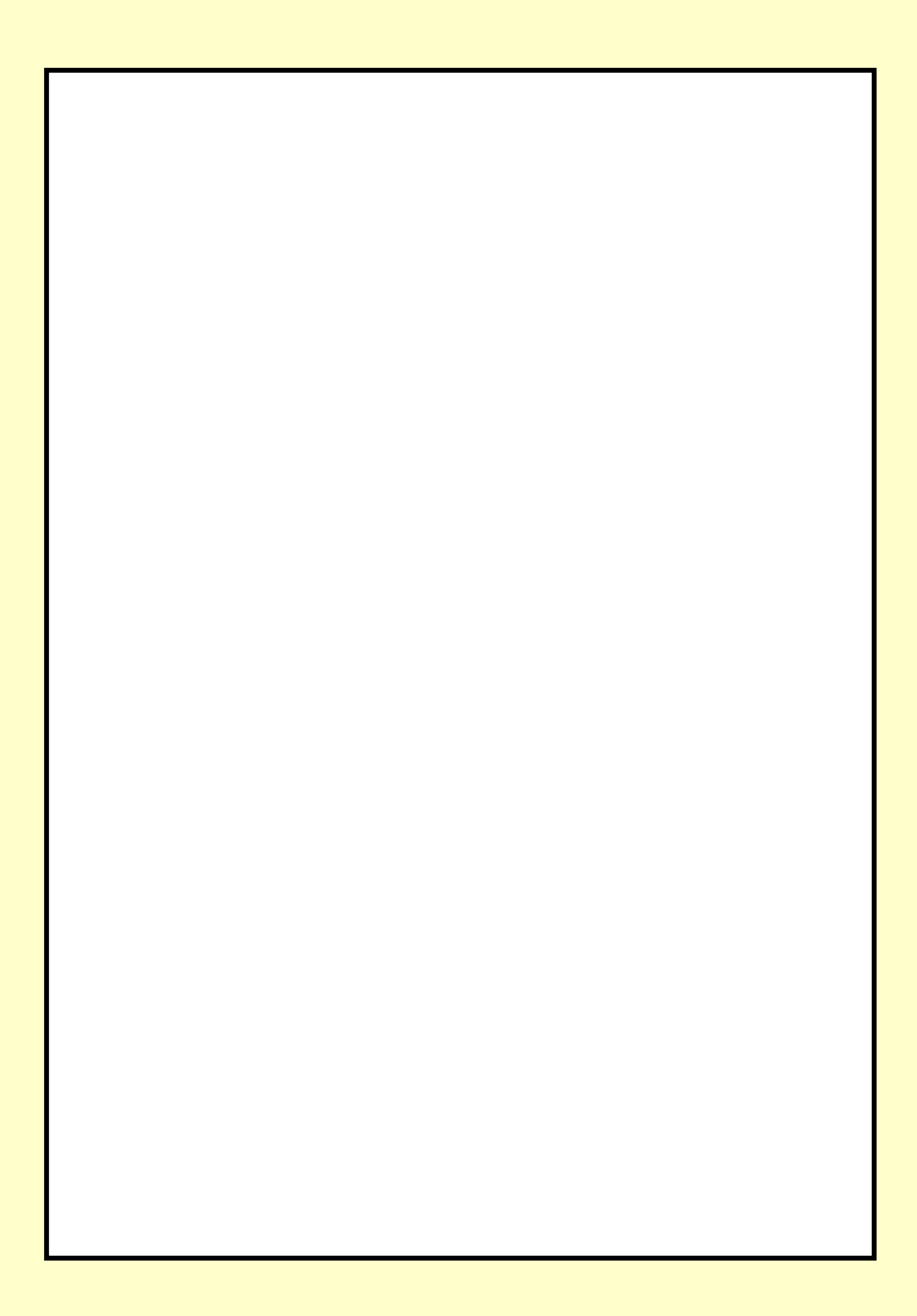


الفصل الأول

خديجة من تكون؟

هنالك ثلاثة عوامل لا يُمكن من دونها فهم شخصية خديجة ولا تحديد دورها في علاقتها بمحمّد. وهذه العوامل هي:

- نسبها القبلي؛
- تجارتها؛
- تكوينها العقلي والعقائدي.



- I -

خديجة شريفة بني أسد

يُمثّل النّسب لدى القبائل العربيّة التي كانت تعيش في مكّة (أو في غير مكّة) مقوّمة من مقوّمات شخصيّة الفرد[١]. والنّسب هنا يعني انتساب الدّم إلى هذه القبيلة أو تلك، ثمّ إلى هذا الفرع أو ذاك من هذه العشيرة، وأخيراً إلى هذه العائلة أو تلك من هذا الفرع بكلّ ما في ذلك من حالات رمزيّة تخصّ أمجاد القبيلة فالفرع فالعائلة. لذلك يحرص الفرد على معرفة نسبه وعلى التباهي به لأنّه يفصح عن مكانة معيّنة داخل ذلك المجتمع.

ولقد ظلّ تقليد النّسب قوياً في المجتمع المكّي، ممّا يعني قوّة التقليد القبلي أيضاً بالرّغم من التّطورات التي عرفها هذا المجتمع قبل ظهور الإسلام إذ بدأت تشقه إنقسامات من طبيعة أخرى، طبقيّة، تقابل بين أغنياء وفقراء / أسياد وعبيد. لكنّ هذه الإنقسامات لم تكن على درجة من التطوّر تجعلها تطمس التقليد القبلي[٢]، أو تطغى عليه فتوحّد المجتمع ضمن تركيبة واحدة يتحدّد موقع الفرد فيها حسب ثروته. إنّ

---

(١) انظر دراسة بِشْر فارس: Farès (Bichr), *L'honneur chez les Arabes avant l'Islam*, pp. 81 - 87.

(٢) يذهب مونتغمري وات M.Watt إلى فكرة مغايرة وهي أنّ النزعة الفرديّة هي التي بدأت تبرز على حساب النزعة القبليّة في المجتمع المكّي قبل الإسلام: محمّد في مكّة، ص ص ٤٢ ـ ٤٧.

عمليّة الاستعباد مثلاً لا تتمّ من صلب القبيلة نفسها، أي أنّ أفراد القبيلة الواحدة لا يستعبدون بعضهم البعض، بل «يستوردون» عبيدهم من قبائل ومناطق أخرى، شراءً أو أسراً[1]. فقد كان البشر جزءاً من الغنيمة التي توزّع عقب الغزوات والحروب.

وممّا لا شك فيه أيضاً أنّ الثراء في صلب المجتمع المكّي، أفرز أرستقراطيّة قرشيّة من طبيعة تجاريّة بحكم كون التجارة أهمّ الأنشطة الاقتصاديّة في مكّة[2]. ومكّن هذا الثراء من بروز قبائل على حساب أخرى، وعائلات في صلب القبيلة نفسها على حساب أخرى، وهو ما أهّلها للسيطرة والنفوذ سواء على مستوى القبيلة أو على مستوى مجموع القبائل. كما أفسح هذا التطوّر المجال لنمو موقع الفرد ضمن العلاقات الاجتماعية القائمة.

لكن ذلك الثراء لم يكن من نتائجه تخلّي صاحبه عن قبيلته وتعويض «العصبيّة القبليّة» إنْ شئنا بـ«عصبيّة طبقيّة» / «أخوّة الثروة» بدل «أخوّة الدم» بشكل واضح وحاسم، بل إنّ الثريّ عادة ما يبقى النّاطق باسم القبيلة، يستمدّ منها قوّته وتستمدّ منه عزّتها ومجدها. لذلك كان الثراء يتقاطع أو يتّحد إنْ شئنا مع النّسب ولا يتعارض أو يتنافر معه، دون أن يعني ذلك نفياً لظهور تمايزات اجتماعيّة في داخل القبائل، نجد إشارة واضحة إليها في القرآن عند حديثه عن الثراء الفاحش وحبّ المال والتّرف من جهة، وعن الفقراء والمساكين واليتامى المقهورين من جهة ثانية.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٨.

(٢) راجع هنري لامنس: Lammens (Henri), *L'Arabie occidentale avant l'hégire*؛ وباتريسيا كرونة Crone (Patricia), *Meccan Trade and the Rise of Islam*.

وقد كانت خديجة بنت خويلد «ذات نسب مرموق». فهي حسب النسّابين والمؤرّخين خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي ابن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر[1].

أمّا أمّها فهي فاطمة بنت زائدة بن جندب، وهو الأصمّ بن هدم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص. وأمّ فاطمة هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن عمرو بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب ابن فهر. وأمّ هالة العرقة، وهي قلابة بنت سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤيّ[2].

فخديجة إذن أسدية بنسب أبيها. وعشيرة أسد هي إحدى عشائر «قريش البطاح»، جدّهم عبد العزّى بن قصيّ. وهم الذين كانوا يسكنون بباطن مكّة، بالوادي[3]. وقد أقاموا في بيوت مستقرّة، ويبدو من وصف أهل الأخبار لبيوت مكّة أن بيوت أثريائها وسادتها مبنية بالحجر. ولبعض

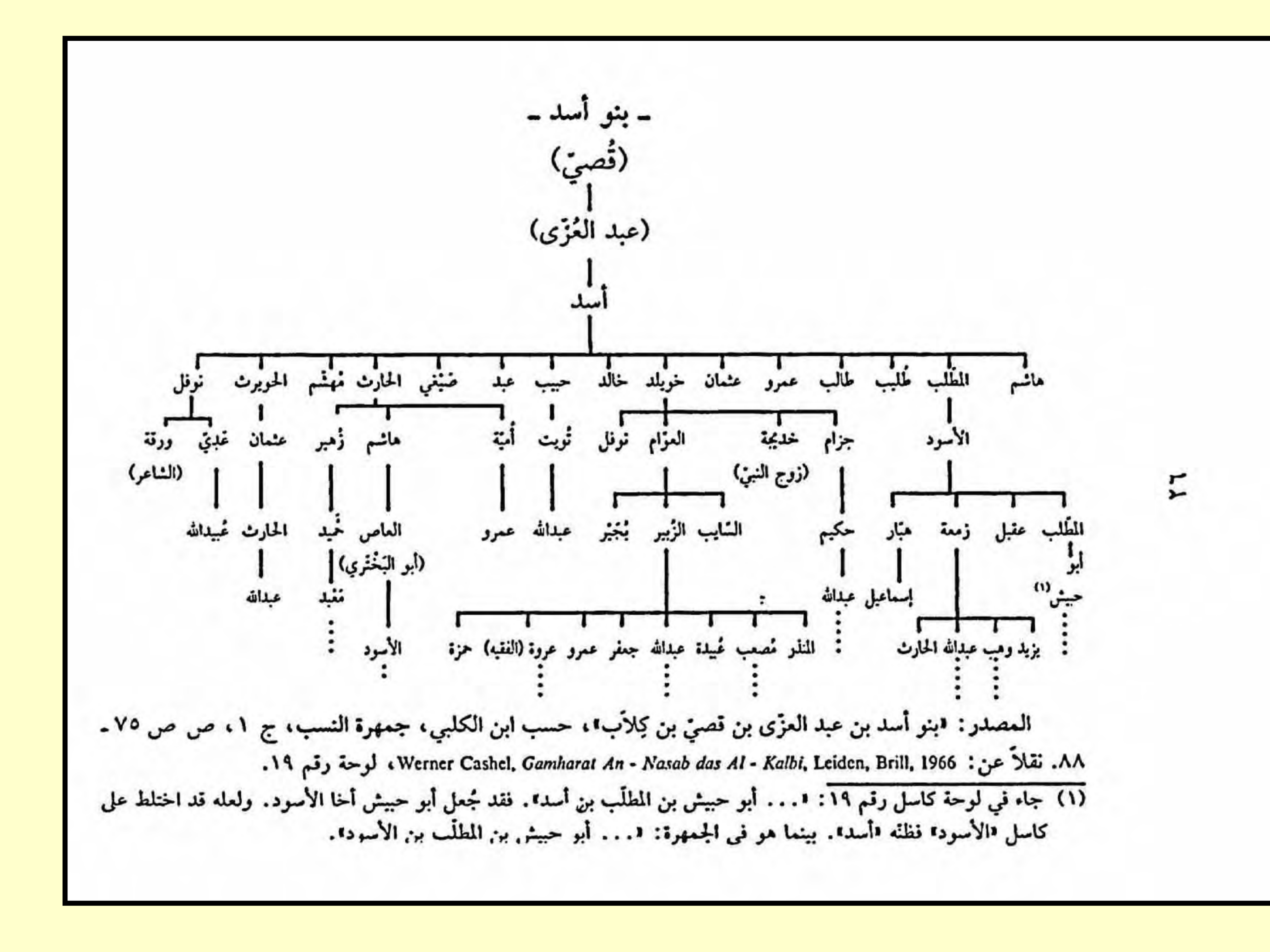
---

(١) انظر شجرة نسب أسد بن عبد العزّى، ص ٢٦؛ المصعب الزّبيري، المصدر نفسه، ص ٢٠٦؛ ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ١٩٨؛ ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص ١٤؛ ابن الكلبي، المصدر نفسه، ج١، ص ٧٥.

(٢) المصعب الزّبيري، المصدر نفسه، ص ٢٢؛ ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ٢٠١. أمّا ابن سعد في الطبقات، فيذكر نسب أمّ خديجة بشيء من الاختلاف، ج٨، ص١٤.

(٣) قريش البطاح هي قبائل بني عبد مناف وبني عبد الدّار وبني عبد العزّى وبني عبد قصيّ وبني زهرة وبني مخزوم وتيم بن مرّة وجمح وسهم وعديّ وبني عتيك بن عامر بن لؤيّ. وقصيّ هو الذي أدخل البطون المذكورة الأبطح. فسمّوا البطاح. أمّا بقيّة بطون قريش فنزلوا بظواهر مكّة وجبالها فسمّوا بقريش الظّواهر وكانوا أعراباً وأصحاب قتال. راجع البلاذري، أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٩ ـ ٤٠؛ المسعودي، مروج الذهب، ص ٦٤؛ ابن حبيب، المصدر نفسه، ص ص ١٦٧ وما بعدها.

ـ بنو أسد ـ



المصدر: «بنو أسد بن عبد العزّى بن قصيّ بن كِلاَب»، حسب ابن الكلبي، جمهرة النسب، ج ١، ص ص ٧٥ ـ ٨٨. نقلاً عن: Werner Cashel, *Gamharat An - Nasab das Al - Kalbi*, Leiden, Brill, 1966، لوحة رقم ١٩.

(١) جاء في لوحة كاسل رقم ١٩: «... أبو حبيش بن المطلّب بن أسد». فقد جُعل أبو حبيش أخا الأسود. ولعله قد اختلط على كاسل «الأسود» فظنّه «أسد». بينما هو في الجمهرة: «... أبو حبيش بن المطلّب بن الأسود».

الدّور حجرٌ عند باب البيت يجلس تحته ليستظلّ من أشعة الشمس وكان لمنزل خديجة حجرٌ من هذا الطراز[1]، وهو يوجد برباع بني أسد حيث دار أبي البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد، أحد أشراف بني أسد، ودار الزّبير بن العوّام بن خويلد، ودار حكيم بن حزام بن أخي خديجة.

وكان بنو أسد من وجهاء مكّة. وكان خويلد والد خديجة من أصحاب «الرّياسة والشّرف فيها»، عُرف بـ«الصّدق» و«الأمانة» و«الأَنَفَة»، وهي من الصّفات المحبّبة والمفضّلة لدى العرب قبل الإسلام وتشكّل عنصراً من عناصر التفاضل بين القبائل في باب النسب والشّرف.

كما كان خويلد من أكثر أبناء أسد ولداً. وكان الولد في الحياة القبليّة مصدراً للجاه والشّرف. وإلى ذلك كلّه كان سيّد بني أسد بن عبد العزّى[2].

وتذكر المصادر أنّ حكيم بن حزام كان من وجوه قريش وأشرافها وتذهب إلى أنه كان عضواً في دار النّدوة بمكّة: «الملأ»، وهو مجلس يضمّ الرّؤساء والأعيان للتشاور في الأمور والبتّ فيها. وحسب المصادر، فإن حكيم دخل دار الندوة وهو ابن خمس عشرة سنة رغم أن السنّ الأدنى لدخولها كانت محدّدة بأربعين سنة فأكثر[3]. ولسنا ندري إن كانت هذه الرواية تحمل شيئاً من الصحة أم أنّها مختلقة. ومهما يكن من أمر ففيها مبالغة، إذ إنه مهما كانت خصال حكيم «الاستثنائية»، فإن سنّ

(١) الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٨٢؛ الأزرقي، أخبار مكّة، ص ١٩٩.

(٢) ابن حبيب، المصدر نفسه، ص ١٦٤ وما بعدها، ٢٠٧؛ ابن الكلبي، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٧٥ ـ ٨٨.

(٣) الثعالبي، ثمار القلوب، ص ٥١٨ وما بعدها؛ ابن حبيب، المصدر نفسه، ص ٢٣١.

دخوله إلى دار الندوة كما تذكره الروايات مبكرة جدّاً لا تسمح له بكسب المؤهّلات المطلوبة. لكنّنا لا نجد من جهة أخرى سبباً مقنعاً يدفع بالرّواة إلى تهويل قدراته. والحال أنّه دخل الإسلام متأخراً، يوم فتح مكّة[1]. فالأرجح إذن أنه دخل دار الندوة قبل بلوغ الأربعين لا غير لبعض مآثره الخاصة. وممّا يذكر عن حكيم أنه كان في «الجاهلية» «حمّال أثقال الدّيات»، وهي صفة وصفه بها حسّان بن ثابت في ديوانه[2] تنويهاً بشهامته. وقد كانت الشّهامة من شيم السّادة عند العرب.

وتذكر بعض الكتب أنّ قبيلة بني أسد كانت من بين القبائل التي عقدت حلف «الفضول»، وهو عهد جمع بين قبائل من قريش (بنو هاشم وبنو المطّلب وبنو أسد بن عبد العزّى وبنو زهرة بن كلاب وتيم بن مرّة) حول نصرة المظلوم بمكّة[3]. إلاّ أنّها لمّا خرجت من ذلك الحلف قويت اقتصادياً وانتقلت إلى دائرة «الأعمال الضّخمة» ممّا يعني أنّ موقعها تحسّن اقتصادياً على الأقلّ[4].

أمّا نسب خديجة من جهة الأمّ فهو قرشي. كانت أمّها قرشيّة قحّة وإن هي من قريش الظّواهر[5]. وقد كان قرشيو البطاح يتزوّجون من نساء الظّواهر. ولا تذكر لنا كتب التاريخ أكثر من ذلك عن أم خديجة. وهكذا

---

(١) المصعب الزبيري، المصدر نفسه، ص ٢٣١.

(٢) ديوان حسّان بن ثابت، ص ٧٠.

(٣) الأغاني، ج١٧، ص ٢١٥.

(٤) راجع وات، المرجع نفسه، ص ١٥٣؛ وانظر كذلك: ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ص ١٤٠ ـ ١٤٢.

(٥) ورد في أنساب الأشراف للبلاذري، ج١، ص ٣٩: أنّ بني معيص بن عامر بن لؤيّ (قوم أم خديجة) من قريش الظّواهر.

فإنّ خديجة بحكم معايير العصر كانت عميقة النّسب أصيلته من جهة والدها على الأقل. ينقل ابن هشام في السّيرة النّبويّة عن ابن إسحاق أنّ خديجة كانت «أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهنّ شرفاً»[1]. ومن البديهي أنّ نسب خديجة يوفر لها كإمرأة شريفة الاحترام والتقدير ويبوّئها مكانة هامّة في مجتمعها. كما يوفّر لها من الناحيّة النّفسية الشّعور بنوع من العزّة والقوة والحصانة.

ولا نعثر في كتب التاريخ على تحديد واضح لتاريخ ميلاد خديجة. وهو أمر طبيعي بما أنّ العرب لم يكن لديهم في ذلك الوقت طريقة دقيقة في التأريخ قائمة على ضبط السنة والشهر واليوم وفقاً لتقويم زمني معيّن. هنالك إشارة إلى أنّ محمّداً ولد عام الفيل، وبما أنّ الروايات تذكر أن خديجة تكبره بخمس عشرة سنة، فمعنى ذلك أنها ولدت قبل عام الفيل بتلك المدّة. وما دام الشك قائماً حول تاريخ ميلاد محمّد نفسه، فإنّ تاريخ ميلاد خديجة يبقى بدوره غير ثابت شأنه شأن سنّها عند زواجها بمحمّد مثلما سنبيّن ذلك لاحقاً.

وقد تزوّجت خديجة مرّتين. لكنّ الرّوايات لا تذكر متى تمّت هاتان الزيجتان بالضبّط. كما أنّها تختلف في تحديد أيتهما الزّيجة الأولى وأيتهما الثانية. وإذا كانت أغلب الرّوايات تشير إلى أنّ زوجَيْ خديجة الأوّلين توفيا، فإنّ بعضها يذهب إلى أنّ أحدهما مات بالفعل، أمّا الثاني فقد انفصلت عنه بالطّلاق.

ومهما يكن من أمر وبقطع النّظر عن تلك الاختلافات، فالمؤكّد أنّ

---

(١) ابن هشام، المصدر السابق، ج١، ص ٢٠١. ويُقال: «فلان أوسط القبيلة»، أي «أعرقها واولاها بالصميم».

خديجة تزوّجت «أبا هالة»، واسمه هند بن النبّاش من بني أسيّد بن عمرو ابن تميم. وقد كان بنو أسيّد حلفاء بني عبد الدّار بن قصيّ الذين كانوا يحالفون خويلد بن أسد. وكانت قريش تزوّج حليفهم وقد أنجبت له خديجة ولدين: هند وهالة، وهما اسمان مؤنثان عادةً، إلاّ أنّهما كانا يطلقان على الذكور أيضاً للتدليل. وقد تلقب ابن النبّاش بأحدهما.

كما تزوّجت خديجة عتيق بن عابد المخزومي. ومخزوم عشيرة قرشيّة كانت لها السيطرة السياسيّة في ذلك الوقت، كما كانت ذات باع في عالم التجارة. وقد كانت له من خديجة بنت تدعى هند. وتشير بعض الرّوايات إلى أنّه توفي تاركاً لخديجة ثروة طائلة. وتنسب بعض الروايات هذه الثروة إلى زوجها التميمي الذي أنجبت له هالة وهند[1].

وعلى فرض أن هذه الروايات صحيحة، فإنها لا تقدّم لنا معلومات عن كيفيّة انتقال تلك الثروة من هذا الزوج أو ذاك إلى خديجة. وهذا الأمر لا يثير لدى أصحاب تلك الروايات أي تساؤل، والحال أنهم ينقلون لنا في الوقت نفسه أخباراً تفيد أن عرب «الجاهليّة» كانوا يخصّون الذكور الكبار فحسب بالإرث ويحرمون منه الإناث والأطفال لأنهم «لا يلاقون العدو ولا يقاتلون في الحروب»[2]، بل إن المرأة إذا لم تكن أم ولد وُرِثت هي أيضاً ضمن تركة الزوج المتوفى. فإذا كانت هذه القاعدة عامة

---

(١) عن هاتين الزيجتين انظر: ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص ص ١٤ ـ ١٥؛ ابن حبيب، المصدر نفسه، ص ص ٩٩ ـ ١٠٠، ١٦٤ ـ ٤٥٢؛ ابن الكلبي، المصدر نفسه، ص ٢٧٩؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٧، ص ص ٧٩ ـ ٨٠؛ الطبري، المصدر نفسه، ج٣، ص ١٦١؛ الجاحظ، الحيوان، ج٦، ص ٧٢؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج١، ص ٢٥.

(٢) الطبري، التفسير، ج٣، ص ٦١٦ (سورة النساء).

ومطبّقة بشكل صارم، فأنّى لخديجة أن ترث «الثروة الطائلة» لتميميّها أو مخزوميّها؟ إنّنا نرجح أن الأمور لم تكن بالصرامة التي تنتفي معها الاستثناءات ولا بالشمولية التي تغيب معها الخصوصيات. فنحن أمام عادات وتقاليد تفعل فعل القانون، ولسنا بمحضر قانون منظّم للعلاقات تشرف عليه سلطة مركزيّة وترعى تنفيذه. كما أنّنا لسنا إزاء مجتمع متجانس بل إزاء حياة قبليّة تكمن فيها الخصوصيات. وليس أدلّ على ذلك من أن هنالك روايات تجعلنا نفهم أن حرمان النساء من الإرث لم يكن بالضرورة «سنّة عامة عند جميع القبائل» حسب عبارة جواد علي[1].

وإلى ذلك، فإن إمكانية خرق الأعراف القبليّة من الأمور الواردة. فالروايات تذكر لنا أيضاً أنّ أحد العرب، وهو ذو المجاسد عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر، كان أول من خصّ بناته بالإرث في «الجاهلية» خارقاً بذلك الأعراف السائدة، فورّث ولده تركته وفقاً لمبدأ «وللذكر مثل حظ الأنثيين» الذي سيتحوّل لاحقاً إلى مبدأ إسلامي[2].

وعلى هذا الأساس فإنْ صحّ ما يروى من أن خديجة ورثت من أحد زوجيها «ثروة طائلة»، فيرجّح أن ذلك تمّ بحكم وصيّة، أو بحكم كونها كانت شريكة لذلك الزوج في تجارته، أو أنه وهبها وهو على قيد الحياة جزءاً من ثروته. وهنالك احتمال آخر، وهو أنّ خديجة إذا كانت ورثت من زوجها التميمي، فقد يكون ذلك بسبب الولدين اللذين أنجبتهما منه. لكن هذا يفترض أنهما كانا بالغين عند وفاته، قادرين على حمل السّلاح، مثلما تقتضي الأعراف. ومهما يكن من أمر، فإن زيجتي خديجة يمكن أن

---

(١) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٥، ص ص ٥٦٢ وما بعدها.

(٢) ابن حبيب، المحبّر، ص ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

نستنتج منهما أهمية مركزها. فقد كان الزواج في قريش على صلة بأهميّة النّسب. فلئن كنّا لا نعرف شيئاً كثيراً عن أبي هالة لنقصٍ في المعطيات فإنّ عتيق المخزومي جمعت قبيلته بين السيادة والثراء.

وتذكر المصادر أنّ خديجة بعد فقدانها لزوجها الثاني رغب الكثيرون من قومها ومن سادة قريش وزعمائها في الزّواج منها لكنّها رفضت ولا ندري إن كان هذا الخبر صحيحاً أم خاطئاً. فقد يعكس حقيقةً، لأنّ كثرة الزّيجات بالنسبة للمرأة في المجتمع المكّي كانت أمراً شائعاً. فطلاق من زوج أو وفاة زوج لم يكن ليضع حدّاً للحياة العاطفيّة والجنسيّة للمرأة حتى لو كان لها أطفال عديدون، ممّا يعني أيضاً أنه لم يكن ليرغّب الرّجال عن هذه المرأة: «الثيب». أضف إلى ذلك عامل النّسب والثروة في حالة خديجة. فقد كان الزّواج منها يزيد طالبه حظوةً بين قومه. وقد تكون هي رفضت الزواج ممّن طلبوا يدها لشعورها بأنّه لن يحقّق لها ما تريده من استقرار عائلي وعاطفي في زواج أحادي مثلاً. كما قد يكون ذلك الخبر منتحلاً بهدف إضفاء مزيد من الأهميّة على زواج خديجة بمحمّد وإعطائه بعداً أسطورياً.

- II -

خديجة التاجرة

من نافل القول إنّ أهل قريش كانوا «قوماً تجّاراً»، وكان أهل خديجة من بينهم مثل أبي زمعة الأسود بن المطّلب الذي كان من أغنياء مكّة[١]، وابنه زمعة الذي كان متجره إلى الشام[٢]، وحكيم بن حزام ابن أخي خديجة[٣].

وكان حجم النشاط التجاري للفرد يُحدِّد بشكل ما موقعه في القبيلة، كما يحدّد حجم النشاط التجاري للقبيلة موقعها بين القبائل. وقد كان ذلك بارزاً خصوصاً في المجتمع المكّي ما قبل الإسلامي حيث بدأت تبرز أهميّة العنصر الاقتصادي في العلاقات الاجتماعية[٤].

ولا يتعلّق الأمر بقوم خديجة فقط، فهي نفسها كانت تسهم بمالها في التجارة: «كانت خديجة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث إلى الشام فيكون عيرها كعامّة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع المال

(١) ابن حبيب، المصدر نفسه، ص ١٥٩؛ البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ١٤٩.
(٢) ابن حبيب، المصدر نفسه، ص ١٥٨.
(٣) الزبير بن بكار، نسب قريش، ج١، ص ٣٦٧، رقم ٦٤٤.
(٤) انظر في هذا الشأن: وات المرجع نفسه؛ ورودنسون، Rodinson (Maxime) *Mahomet*؛ ولامنس، Lammens (Henri), *L'Arabie occidentale avant l'hégire*.

مضاربة»[١]. هكذا تقول كلّ المصادر. والملفت للنظر أنها لا تتساءل عن ذلك أو تستهجنه باعتبار خديجة امرأة بل تقدّمه أمراً عاديّاً رغم ما نعرفه عن المجتمع القرشي الذي كان في الحقيقة مجتمعاً ذكورياً خضعت فيه المرأة بصورة عامة لسلطة الرجل. وكان الرجال قوّامين فيه أساساً على النشاط التجاري. والدارس لا يجد فيه أثراً لتاجرات في حجم خديجة عدا أسماء بنت مخرّبة، أمّ أبي جهل حسب المعلومات التي تمكّنا من العثور عليها في معظم المصادر. فقد كانت أسماء تبيع العطور التي يرسلها إليها ابنها عبد الله بن أبي ربيعة من اليمن[٢].

ويختلف المجتمع القرشي من ناحية التقاليد الاجتماعيّة المتعلّقة بالمرأة مع عادات وتقاليد جنوب الجزيرة (اليمن) وحتّى مع المدينة التي هاجر إليها عدد من العائلات اليمنيّة وأثّروا في عاداتها وتقاليدها. فاليمن عرفت حسب الباحثين عادات وتقاليد «أموميّة»[٣]، ظلّت مؤثرة لزمن طويل وهو ما بوّأ المرأة مكانة في العلاقات الاجتماعية أهمّ ممّا كانت عليه في مكة ووفّر لها حرّية أكثر على المستوى الشّخصي، وهو ما سيصطدم به مثلاً المهاجرون القرشيون إلى المدينة بعد البعث، وسيعبّر عن ذلك عمر بن الخطّاب خير تعبير بقوله: «وكنا معشر قريش نغلب النّساء فلما قدمنا على الأنصار إذ هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفقت نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار»[٤].

---

(١) ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص ١٦؛ ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ١٩٩؛ الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٨٠.

(٢) ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص ٢٢٠؛ الواقدي، مغازي، ص ٦٥.

(٣) من أهمّ الدّراسات دراسة يوسف شلحد: Chelhod (Joseph), «Du nouveau à Porpos du "Matriarcat" Arabe», *Arabica*, 28 (1981), pp. 71 - 106.

(٤) البخاري، صحيح، كتاب النكاح، ج٦، ص ١٤٨.

لذلك يكون من المنطقيّ أن يتساءل المرء كيف تحوّلت خديجة إلى تاجرة كبيرة في مثل المجتمع المكّي الذّكوري الذي لا يُساعد عامّةً على نماء شخصيّة المرأة وبروزها. وفي رأيي أنّ كون العنصر الذّكوري هو المسيطر في المجتمع المكّي لا يعني في المطلق عدم إمكانيّة بروز عناصر من الجنس المقابل في ميدان من الميادين بما في ذلك الميدان التجاري، محور النّشاط الاقتصادي في مكّة، خصوصاً إذا تعلّق الأمر بامرأة شريفة. فالأرجح أن يكون للشريفات في مكّة وضع خاص متميّز عن وضع سائر النساء يجعلهنّ أكثر تحرّراً.

وليس هذا خاصّاً بالمجتمع المكّي فحسب. فسيادة ظاهرة معيّنة في أيّ مجتمع من المجتمعات لا يُمكن أن تكون بأيّ حال من الأحوال مطلقة. لأنّ المجتمع كظاهرة حيّة يصعب أن يخضع لنمطيّة محدّدة. فهنالك دائماً القاعدة، ولكن توجد إلى جانبها الاستثناءات التي لها ما يفسّرها في العلاقات الاجتماعية المعقّدة والمتشعّبة.

وما من شكّ في أنّ بعض الظروف الاجتماعية ساعدت خديجة على احتلال الموقع الذي احتلته. فقد تكون عندما امتهنت التجارة أضحت بعدُ امرأة ناضجة. تزوّجت زواجاً أوّلاً ثم ثانياً وأصبحت أمّ عيال تلقى على عاتقها مسؤولية كفالة أبنائها. ثمّ إنّها حسب ما نفهم أخبار المؤرّخين والنّسابين لم تكن في كفالة أيّ رجل من عائلتها، فوالدها متوفى[1]. وتشير بعض المصادر إلى عمّ لها، عمرو بن أسد، كان في

(١) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ٢٠١ (هامش ٣). وذكر ابن سعد أنّ خويلد مات يوم الفجار، وكان في هذه الحرب (بين قيس عيلان وبني كنانة) على رأس بني أسد، المصدر نفسه، ج٨، ص ١٦؛ المسعودي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٧٨.

سنّ متقدّمة جدّاً[1]، لا يمكنه الوقوف على مصالح بنت أخيه والتكفّل بشؤونها. كما تشير مصادر أخرى إلى أنّ لها إخوة، وهم: العوّام وحزام ونوفل[2]. لكن لا نعرف كثيراً عن هؤلاء الإخوة باستثناء بعض الإشارات حول أعمال بعضهم: فقد كان العوّام خيّاطاً[3]. والواضح أنّهم لو كانوا في موقع يؤهّلهم لإدارة شؤون أختهم لأشارت الكتب إلى ذلك.

ثمّ إنّ خديجة كانت «ذات مال وفير»، وهو عامل له وزنه داخل العلاقات القبليّة يدعّم مركز صاحبته، حتى لو كانت من الجنس الأنثوي، ويوفّر لها من حرّية التصرّف ما لا يتوافر لغيرها من بني جنسها ممّن هنّ في مرتبة اجتماعيّة أقلّ خاصّةً في مجتمع تجاري. فالتجارة، على عكس الأنشطة الفلاحيّة الزّعويّة المنغلقة إلى حدّ ما، تؤثّر في العقليات، فتجعلها أكثر قبولاً لبعض الأوضاع التي لا تتطابق بالضبط مع التقليد أو العادة.

كلّ هذه العوامل كانت كفيلة، في رأيي، بأن تؤهّل خديجة لامتهان التجارة دون أن يثير ذلك أيّ إشكال في قومها وفي المجتمع المكّي عامّةً، بل الواضح أنّها كانت تحظى بالاحترام والتقدير، وإن كنّا نظلّ نتساءل عن مصدر «المال الوفير» الذي كانت خديجة تُسهم به في التجارة.

لقد أثرنا أعلاه موضوع الثروة الطائلة التي تقول الروايات إنّها ورثتها عن أحد زوجيها. ومع ذلك فإنّنا نتساءل هل أن كلّ ثروة خديجة

---

(1) ابن الكلبي، المصدر نفسه، ج1، ص 87؛ ابن حبيب، المصدر نفسه، ص 78.
(2) ابن الكلبي، المصدر نفسه، ج1، ص 18.
(3) ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص 215.

متأتيّة من ذلك الميراث أم كانت هي نفسها تتمتّع أصلاً بشيء من الثروة المتأتيّة من أهلها؟ أم أنها، وهذا احتمال ثالث، استثمرت رأس مال خاص بها في التجارة والمضاربة وكوّنت منه ثروتها التي تتحدّث عنها الروايات؟ إنّ غياب المعلومات الدقيقة في هذا المجال يترك الباب مفتوحاً بالطبع أمام التقديرات المبالغ فيها. فلا نخال المصادر مثلاً تقول صحيحاً عندما تذكر أن تجارة خديجة كانت تشكّل نصف القافلة التي تتجه إلى الشام[١]، لأنّ خديجة لا نجد لها ذكراً ضمن قائمة كبار تجار قريش الذين كانوا لِعِظَم تجارتهم يملكون قوافلهم الخاصّة[٢]. فالأرجح إذن أن تجارتها كانت متوسّطة، وأنّ الرواة بالغوا فيها تعظيماً لعلاقتها بمحمّد. ومهما يكن من أمر هذه المبالغة فإنّ كون خديجة ثريّة لا يمكن أن يتسرّب إليه الشّك إذ نجد له صدى في القرآن باعتباره أثبت نصّ محفوظ ينقل لنا أخباراً عن تلك الفترة التي عاشتها خديجة. خاطب القرآن محمّداً: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[٣]. وتؤكّد كتب التفاسير أنّ المقصود بهذه الآية أنّ الله أغنى محمّداً بمال خديجة الثريّة[٤]. وهو المعنى الموجود في الحديث عندما ذكر محمّد لعائشة أنّ خديجة «واسته بمالها»[٥]، أو عندما قدم محمّد مهموماً إلى خديجة، بعد البعث، ليشكوها حالة القحط فقال لها حينما سألته عن حزنه: «الزمان زمان قحط

(١) ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص ١٦.
(٢) أمثال: الوليد بن المغيرة، هشام بن المغيرة والد أبي جهل، أبو أحيحة سعيد بن العاص، أبو سفيان... إلخ.
(٣) سورة الضحى، ٩٣/٨.
(٤) الرازي، التفسير الكبير، ج٣١، ص ٢١٩؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢٠، ص ٩٩.
(٥) ابن الجوزي، أحكام النساء، ص ٢٢٧.

فإن أنا بذلت المال ينفذ مالك فأستحي منك وإنْ لم أبذلْ أخاف الله. . .»[1]. أي أنّ الغنى كان غنى خديجة، وأنّ «الله» متّعه به إذْ زوّجه منها، وبالتالي فإن محمّداً لم تكنْ له ثروة خاصة به ولم يستغلّ علاقته بخديجة لتكوين مثل تلك الثروة.

وعلى صعيد آخر، فقد حاولنا البحث عن المواد التي كانت تقوم عليها تجارة خديجة، فلم نعثر على أيّ إشارة. لذلك نرجّح أنّها كانت على العموم تتاجر بالمواد نفسها التي يتاجر بها أهل قريش[2]. وقد كانت خديجة تتولى بنفسها اختيار الأشخاص من قريش الذين يرعون تجارتها ضمن القافلة.

كما تشير المصادر إلى أنّها كانت تضارب التجّار، ومن المعلوم أنّ المكّيين لم يعتنوا بالنشاط التجاري فحسب وإنما كانت لهم أنشطة ماليّة أيضاً. فقد كانوا يحصلون على فوائد من المضاربة. والمضاربة عند أهل الحجاز هي القراض، ويُراد به تقديم مال إلى شخص يتّجر به على ربح معيّن[3].

ما من شكّ في أنّ قيام خديجة بنشاط تجاريّ من شأنه أن ينعكس على شخصيتها. فهذا النشاط الاجتماعي ينمّي تلك الشخصيّة. فهو يوفّر لخديجة الثروة ويمنحها الاستقلالية الماديّة، وبالتالي يخلّصها من كل تبعيّة في عيشها وعيش أطفالها ويعوّدها على التعويل على ذاتها. كما يمكّنها من الاتصال بالمجتمع المكّي ومعرفته من خلال أرقى وأهمّ نشاط اقتصادي يُمارس فيه.

---

(١) الرازي، المصدر نفسه، ج٣١، ص ٢١٩.

(٢) راجع بخصوص هذا الموضوع دراسة كرونة: Corne (Patricia), *Meccan Trade and the Rise of Islam*, op. cit.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص ٢١٧، مادّة «قرض».

فشؤون مكّة، إذن، لا نخال خديجة غير مطّلعة عليها. كما لا نخالها منعزلة عن أخبار الأسواق التي تتّجه إليها القوافل. لقد كان التجّار في ذلك العهد، حملة ونقلة للأخبار التي تردّد على مسامعهم من كلّ حدب وصوب. ولا نشكّ في أنّ الأشخاص الذين كانت تكلّفهم خديجة بتجارتها، كانوا يروون لها ما يجدُّ في الأماكن التي كانوا يؤمّونها.

وأخيرً، فإن إدارة خديجة لتجارتها بنفسها لهي من العوامل التي تؤهّلها لكي تكون صاحبة قرار، لكي تتّخذ بنفسها القرارات التي تخصّ حياتها وحياة أولادها. والتجارة بشكل عام كنشاط اقتصادي واجتماعي، هي على خلاف النشاط الفلاحي الزّعوي مثلاً، توسّع آفاق صاحبها وتدرّبه على الحياة العامّة وتنمّي لديه الرّوح العمليّة (البراغماتيّة) وتجعله أكثر واقعية واتزاناً من الناحية العقلية. وخديجة وإنْ لم تكن تتنقل في البلدان والأسواق بنفسها إلاّ أنّها هي التي كانت تشرف على مصالحها. ولا تشير المصادر التاريخيّة إلى أنّها كانت فاشلة في ذلك، بل الواضح أنّها كانت صاحبة شخصيّة قويّة وعلى دراية بأمورها. تعرف من تختار ليتسوّق بتجارتها ولم تكن ضحيّة لتلاعب بعض التجّار أو الوكلاء. وفي هذا الصدّد قالت عنها المصادر إنّها كانت «حازمة ولبيبة وجلدة»[1]، فلا غرو إذن أن تكون كسبت «الروح التجاريّة» لأهل مكّة من الرّجال. ولا شكّ في أنّ هذاالعامل سيكون له دوره في حياة خديجة عند لقائها بمحمّد وما تبعه من زواج وأحداث عظيمة الشأن.

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٢٨١؛ ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ٢٠٠.

- III -

خديجة في مكّة الوثنيّة

كانت خديجة، صاحبة «النسب والشرف» والمال والتجارة، تنتمي أيضاً إلى وسط يتميّز، أو قُلْ، يتميّز أفراده على الأقلّ، ممّن هم على صلة وثيقة بها، باهتماماتهم العقائديّة والفكريّة. وهذا الجانب من شخصيّة خديجة لم يحظ بالعناية الكافية إن لم نقل ظلّ مطموساً مغموراً لا بحكم قلّة المعطيات وندرتها فحسب وإنّما أيضاً بحكم النّظرة اللاتاريخيّة إلى رسالة محمّد، التي لا ترى لهذه الرسالة من ممهّدات إلاّ من خارج الأرض، ومن مؤشرات إلاّ في الإبداعات والإكرامات.

وحتى إذا اهتمّت تلك النّظرة اللاتاريخيّة بالأرض فباعتبارها عاملاً سلبياً (مفهوم الجاهليّة بكلّ أبعاده)[1] استوجب مجيء تلك الرّسالة من السّماء، وليس باعتبارها المجال الذي اعتملت فيه عناصرها الاجتماعيّة والمعرفيّة إلى حدّ النضج فطفت إلى السّطح وأخذت طريقها شيئاً فشيئاً إلى أن انتشرت وسادت عبر صراع مرير حُدِّدت ملامحه ونتائجه أرضاً. فالمخاضات تجري في الأرض، وتلك النّظرة اللاتاريخيّة تقفز بها إلى ما وراء العرش.

---

(١) حول هذا الموضوع انظر: الآلوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج١، ص ١٥.

وحتى نفهم الوسط العائلي الذي عاشت فيه خديجة، نرى من الضروري في البداية التطرّق إلى الوضع العقائدي العامّ بمكّة في تلك الفترة، وهو وضع لا نخال خديجة غير مدركة له. لقد كان المجتمع المكّي يشهد في الحقيقة مؤشرات تحوّل ديني حتّمته مجمل أوضاع قريش وأوضاع العرب عامّة: الاجتماعيّة والعقائديّة والإقليميّة[1]. فمن نافل القول إنّ الوثنيّة كانت هي المعتقد السائد بين العرب بمن فيهم عرب قريش. وكانت اللاّت والعزّى ومناة الرموز الأساسيّة لهذه الديانة[2]. ولئن كانت الآلهة تتعدّد أحياناً بتعدّد القبائل، فقد كان يحدث أن الصنم الواحد توقره أكثر من قبيلة[3]، أو أنّ بعض القبائل تتعبّد آلهة بعضها البعض[4]. وتشير بعض الدراسات إلى أن قريش تمكّنت من جمع أصنام العرب ونصبتها عند الكعبة فأصبحت القبائل تعظّم هذا المجمع وتحجّ إليه سنوياً علاوة على زيارته خلال أيّام السنة[5].

وفي الحقيقة، فكون العرب كانوا يحجّون إلى المكان نفسه ويلتقون فيه، ويتعاطون نشاطاً تجاريّاً، ويحرّمون على أنفسهم في تلك

---

(١) انظر في هذا الصدد: جعيّط، الفتنة، ص ص ١١ وما بعدها؛ وات، محمّد في مكّة؛ Andrae (Tor), *Mahomet. Sa vie et sa doctrine*.

(٢) ورد ذكر هذه الآلهة في سورة النجم، ٥٣/١٩ ـ ٢٠: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى، ومناة الثالثة الأخرى...﴾. انظر كذلك ابن الكلبي، الأصنام.

(٣) يذكر الأزرقي أن العزى «كانت توقرها قريش وكنانة وخزاعة وكلّ قبائل مضر»، أخبار مكّة، ج١، ص ص ١٢٦ وما بعدها.

(٤) مثال ذلك أن قريشاً كانت تعبد «إله» كنانة، وبني كنانة يعبدون «إله» قريش. ورد في المحبّر لابن حبيب، ص ٣١٨.

(٥) جوّاد علي، المفصّل، ج٦، ص ص ٨١ ـ ٨٢؛ الخربوطلي، تاريخ الكعبة، ص ٣٦.

الفترة الحروب والاقتتال. إنّما يعني أنّ «روحاً دينيّة عربيّة» كانت تتبلور حتى من خلال ذلك التعدد الوثني. وإلى ذلك، فمع الوثنية، مع اللاّت والعزّى ومناة الأصنام، كان القرشيون يعترفون بوجود إله يدعونه «الله» الذي يتبدّى لنا في صور «إله السماء»، أو حسب عبارة فلهاوزن: «تجريداً لكلّ الآلهة»[1]. فهم يقرّون، حسب القرآن نفسه، بأنّ الله هذا خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر وأنزل من السماء ماء فأحيا الأرض من بعد موتها[2]، لكنّهم يجعلون له بناتٍ وبنين وأنداداً[3]. ثم إنّهم يتضرّعون إلى هذا الإله ويستغيثون به في ملمّاتهم ويبسملون ويقسمون به ويفتتحون به عهودهم[4]. كما كان «الله» حاضراً في دعواتهم وفي تلبيتهم[5]. ومن المحتمل أنهم كانوا يتسمّون به، والشكُّ متأتٍ من التغيير الذي حصل بعد الإسلام في العديد من الأسماء التي كانت تحمل أسماء أصنام فتحوّلت إلى تسمية «عبد الله». لكنّ «الله» لم يكن مع ذلك واضح الملامح تعريفاً وصفاتٍ وإمكانياتٍ وقدراتٍ مثلما سيكون لاحقاً في القرآن. كما لم يكن محلّ عبادة أو قُلْ إنّنا لا نعثر على ما يفيد أنّه كان

---

(١) Wellhausen, *Reste Arabischen Heidentumus.*

(٢) سور: العنكبوت ولقمان والزخرف..

(٣) سور: الأنعام ٦/ ١٠٠، النحل ١٦/ ٥٧، الزخرف ٤٣/١٦، الصّافات ٣٧/ ١٤٩.

(٤) صحيفة قريش ضد بني هاشم وبني المطلب (باسمك اللهم فأغفر): البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ٢٣٤؛ صحيفة الحديبيّة (باسم اللهمّ): ابن هشام، المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٦٦.

(٥) «لبّيك اللهم لبّيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك تملكه وما ملك»: ابن الكلبي، الأصنام، ص٧. انظر أشكالاً أخرى من التلبيّة في المفصّل لجوّاد علي، ج٦، ص ٣٧٥ وما بعدها.

محل عبادة لو أنّ قريشاً «جعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً»[1]. لقد كانت الأصنام محور عبادتهم، يعظّمونها ويزورونها ويذبحون لها ويهدونها ويصلّون لها. وهم يعتبرون أنّ ذلك يجعلها واسطة بينهم وبين الله، تقرّبهم منه وتكون شفيعاً لهم عنده[2]. وهنا يكمن شركهم في نظر القرآن إذ هم يجعلون شركاء لخالق السموات والأرض من لا قدرة لهم على شيء ومن هم ليسوا جديرين بالعبادة. وإنّ لفي حوار محمّد في بداية الدّعوة مع الحصين بن عبيد بن خلف الخزامي، الذي أتاه باسم وجهاء قريش ينهاه عن شتم آلهتهم، خير ترجمة لهذه الحالة:

- حصين (لمحمّد): «ما هذا الذي بلغنا عنك: أنت تشتم آلهتنا؟».
- محمّد: «يا حصين كم تعبد اليوم إلهاً؟».
- حصين: «سبعة: ستة في الأرض وواحد في السّماء»[3].
- محمّد: «فأيّهم تعبد لرغبتك ورهبتك؟».
- حصين: «الذي في السماء».
- محمّد: «فإذا أصابك الضرّ، فمن تدعو؟».
- حصين: «الذي في السّماء».
- محمّد: «فإذا هلك المال، فمن تدعو؟».

---

(١) سورة الأنعام ٦/١٣٦.

(٢) اعتمدنا هنا درس الدكتور هشام جعيّط حول «مفهوم الله» الذي ألقاه أمام طلبة التبريز، قسم التاريخ، للسنة الجامعية ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤ في كلية العلوم الإنسانية بتونس العاصمة.

(٣) أي ستة أصنام في الأرض وإله في السماء.

ـ حصين: «الذي في السّماء».

ـ محمّد: «يا حصين يستجيب لك وحده وتشرك معه غيره؟»[1].

إنّ هذا الحوار الذي يبرز فيه «الله» كائناً سماويّاً، مجرّداً، يتوجّه إليه حصين في عبادته وفي دعواته، يؤكد لنا أنّ الشرك على هذا الوجه كان عبارة عن مرحلة وسطية، انتقاليّة، كان فيها «الله»، السّماوي، المجرّد، يغزو أكثر فأكثر الفضاء المعتقدي والرّوحي للنّاس. ومن البديهي أنه بقدر ما يزداد «الله» أهميّة في وعي الناس يفسح المجال أمام طرح الأسئلة حول أحقيّة الأصنام بالعبادة، بل إنّ عبادة الأصنام هذه تصبح غير ذات معنى بالنسبة إلى من هم أقدر من غيرهم، فكريّا، على الانتقال من الحسّي في وعيهم الديني إلى ما هو تجريديّ.

وعلى صعيد آخر كان هنالك من تشيّع من العرب للمسيحيّة، ولو أنّ الأمر في مكّة كان محدوداً جدّاً[2]، لكنّه يعبّر عن نزعة إلى اعتناق ديانة أرقى من الوثنيّة السّائدة وأكثر استجابة للمتطلبات الروحيّة للفرد. وكان المكّيّون أيضاً على اطلاع على الدّيانة اليهوديّة التي كان لها وجود هام في الحجاز واليمن، وهي ديانة توحيديّة لها كتاب وأنبياء. وكان أصحابها يعتبرون أنفسهم من الناحيّة العقائديّة في طور أرقى من غيرهم ممّن لايزالون يعبدون الأصنام، علاوة على شعورهم بالامتياز باعتبار أن الرّب حباهم دون غيرهم بأنبياء وكتاب. ولا نشكّ في أنّ اتصال العرب من أهل مكّة وقتها سواء بالمسيحيّين أو اليهود قد يكون خلّف عند بعضهم السؤال التالي: لماذا لم يرسل إليهم هم أيضاً نبيّ ولم ينزّل عليهم

(١) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) انظر كتابنا، المسيحيّة العربية وتطوراتها، ص ص ٨٥ ـ ٨٨.

كتاب لما في ذلك من ارتقاءٍ بالعقيدة ونخوة «قوميّة» وتوحيد للنّاس، الذين بدأت القبيلة تضيق بهم كإطار لتنظيم علاقاتهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة الجديدة فضلاً عن علاقاتهم بالعالم الخارجي. إذ لا يمكن لأحدٍ أن ينكر أن شخصيةً عربيةً كانت وقتها آخذة في التبلور باحثةً عن مكانها ضمن أمم المنطقة وشعوبها التي تستقطبها قوتان امبراطوريتان هامتان: الفرس والبيزنطيون. وقد تكون هذه الأمور من بين ما كان يجول بخاطر جانب من شباب قريش وخاصّة المثقفين منهم في نواديهم ومسامراتهم، قريش القوية بتجارتها التي اتخذت طابعاً عربيّاً ودولياً، «قريش التي تعتبر بذاتها بمثابة قبيلة العرب الدينية الممتازة»[1]، قريش التي كانت كل العوامل تهيئها لدور جديد في صلب العرب والمنطقة بل والعالم أيضاً.

ولعلّ أهمّ ما يؤكد بالفعل ظهور الحاجة إلى تجديد ديني أصيل ما برز في تلك الفترة من نزعة إلى التوحيد لدى بعض المكّيين الذين سُمّوا بالحنفاء كما سُمّيت ديانتهم بالحنيفية. وكان ظهورهم في مكّة صدى في الحقيقة لتيّار الحنيفيّة والحنفاء بشكل عام في بعض مناطق الجزيرة العربية الأخرى. وكان تبني أولئك المكّيين القرشيين للحنيفيّة محاولة جادة منهم للبحث عن طريق خاص للتوحيد يربطهم برمزه الأوّل: «جدّهم» إبراهيم، ويصدهم عن عبادة الأوثان مع تمييزهم عن المسيحية واليهودية اللتين لم تستهويا الحنفاء لعدّة أسباب يضيق المجال هنا عن ذكرها[2]. وسوف ينوّه القرآن بالحنيفيّة والحنفاء، بل إنّ الحنيفيّة سترد مرادفةً

---

(١) جعيط، الفتنة، ص ٢٠.

(٢) جوّاد علي، المرجع نفسه، ج٦، ص ص ٤٤٩ وما بعدها.

للإسلام والحنيف مرادفاً للمسلم في أكثر من موضع من مواضع القرآن[١]. وفي صلب حنفاء قريش سنجد رمزاً على صلة وثيقة بخديجة بنت خويلد التي نصل الآن إلى الحديث عن وسطها المعتقدي الضيّق. هذا الرّمز، هو ابن عمّها الذي تفيد المصادر أنها سُمّيت له في صغرها[٢]، وظلّت على صلة وثيقة به، وإنْ لم تتزوّجه وأسمه ورقة بن نوفل.

كان ورقة أحد أربعة من قريش عُرفوا بالحكمة والتأمل وبنزعتهم التوحيدية، علماً بأن بعض المصادر تشير إلى أنّ بني أسد، قوم خديجة وورقة، عرفوا باهتماماتهم بالحكمة. ونحن نجد بالفعل من بين الأربعة أسديّاً آخر هو عثمان بن حويرث، إضافة إلى عبيد الله بن جحش (حليف لعشيرة عبد شمس)، وزيد بن عمرو من عشيرة عديّ. وتذكر المصادر أنّ هؤلاء الأربعة اعتزلوا عبادة الأوثان وامتنعوا عن أكل ذبائحها وتعبّدوا الله ربّ إبراهيم[٣]، قبل أن يتنصّر بعضهم في فترة لاحقة وفقاً لبعض الروايات. وهي تذكر أيضاً أنّ ورقة حرّم في «الجاهلية» الخمر والسّكر والأزلام[٤]، وهو ما فعله قرشيون آخرون مثل عبد المطّلب بن هاشم

---

(١) وردت لفظة الحنيف في سور: البقرة، آل عمران، النساء، الأنعام، يونس، النحل، الروم. كماوردت لفظة الحنيفيّة في سورتيْ: الحج والبيّنة.

(٢) كان العرب يسمّون البنت من الصّغر باسم شخص معيّن، وهو قريبها في الغالب فتكون زوجته لاحقاً.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج٣، ص ١١٣ ـ ١٢٥.

(٤) الزلم: هو السهم الذي كان أهل الجاهليّة يتحزّون بواسطته بين الإقدام على الشيء أو الإحجام عنه: ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص ٧٥. وسيحرّم القرآن بدوره ذلك: ﴿... إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾: سورة المائدة، آية ٩٠.

وعثمان بن عفّان وغيرهما[1].

وإن كان ليس لدينا معلومات أكيدة بأنّ الأربعة كانوا يشكّلون حلقة فكريّة مع بعضهم، وهو أمر لا نستبعده[2]، كما لا نستبعد أن تكون الحنيفيّة قد شملت أشخاصاً آخرين غيرهم، فهنالك ما يؤكد على الأقلّ قيام علاقة بين ورقة وزيد، إذ يذكر ابن حبيب في المحبّر أنّ زيداً كان «نديم» (جليس) ورقة[3]. ومن الأشعار التي يوردها صاحب الأغاني منسوبة إلى ورقة وتعطينا، إذا صحّت نسبتها إليه، فكرة عن اتجاهه التوحيدي ما ذكره:

لَقَدْ نَصَحْتُ لأَقْوَامٍ وَقُلْتُ لَهُمْ
أَنَا النَّذِيرُ فَلاَ يَغْرُرْكُمْ أَحَدُ
لاَ تَعْبُدُنَّ إلـهاً غَيْرَ خَالِقِكُمْ
فَإِنْ دَعَوْكُمْ فَقُولُوا بَيْنَنَا حَدَدُ
سُبْحَانَ ذي ٱلعَرْشِ سُبْحَاناً نَعُوذُ بِهِ
وَقَبْلُ قَدْ سَبَّحَ الْجُودِيُّ وَالْجُمُدُ
مُسَخَّرٌ كُلُّ مَا تَحتَ السَّمَاءِ لَهُ
لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُنَاوِي مُلْكَهُ أَحَدُ

---

(١) ابن حبيب، المصدر نفسه، ص ٢٣٧.

(٢) يذكر ابن هشام أنهم تعاهدوا على نبذ عبادة قومهم وتصادقوا: «ثم قال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض (...) تعلم والله ما قولكم على شيء! لقد اخطأوا دين أبيهم ابراهيم»، انظر: السيرة، ج١، ص ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٣) ابن حبيب، المحبّر، ص ١٧٥.

لاَ شَيءَ مِمَّا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُهُ
يَبْقَى الإِلَهُ وَيُودِي الْمَالُ وَالْوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْماً خَزَائِنُهُ
وَالْخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادُ فَمَا خَلَدُوا
وَلاَ سُلَيْمَانُ إِذْ دَانَ الشُّعُوبُ لَهُ
وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ تَجرِي بَيْنَهَا الْبُرُدُ[1]

ومن خلال هذه الأبيات يبدو «إله» ورقة الذي يدعو إلى عبادته أنّه صاحب الخلق والملك، الأزلي السّرمدي. ولو قيل هذا الكلام بعد مجيء الإسلام لاعتبر متطابقاً مع التوحيد الإسلامي في وصفه لـ «الله». ولئن يشير صاحب الأغاني إلى أن إحدى الرّوايات تذكر أنّ ورقة قال هذا الشعر بمناسبة تعذيب المشركين لـ«بلال» (المسلم)، فإنّه يفندها لأن ورقة لم يدرك عصر النبوّة ومات في إرهاصاتها الأولى، وهو ما يجعلنا نرجّح أنّ ورقة قال ذلك الشّعر ـ إذا كان حقاً من نظمه ولم يُنتحل بعد الإسلام، وهو أمر جائز ـ تعبيراً عنْ معتقده التّوحيدي سواء قبل تنصّره المفترض أو بعده، فنحن لا نعثر في هذه الأبيات على أيّ إشارة ذات طابع نصرانيّ.

وإنّنا لنجد في شعر زيد بن عمرو، وهو ممّن جهروا بتوحيدهم شعراً ولم يتنصّر، معاني قريبة من المعاني التي جاءت في أبيات ورقة:

عَزَلْتُ الْجِنَّ وَالْجِنَّانَ عَنِّي
كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجَلْدُ الصَّبُورُ
فَلاَ الْعُزَّى أَدِينُ وَلاَ ابْنَتَيْهَا
وَلاَ صَنَمَيْ بَنِي غَنْمٍ أَزُورُ

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٣، ص ١١٥.

وَلاَ هُـبَـلاً أَدِيــنُ وَكَــانَ رَبّـاً

لَـنَـا فِي الْـدَّهْـرِ إِذْ حِلْمِي صَـغِـيـرُ

أَرَبّـاً وَاحِـداً أَمْ أَلْـفُ ربٍّ

أَدِيـنُ إِذَا تَـقَـسَّـمَـتِ الأُمُـورُ

أَلَـمْ تَـعْـلَـمْ بِـأَنَّ الله أَفْـنَـى

رِجـالاً كَـانَ شَـأْنَـهُـمُ الْـفُـجُـورُ[1]

وهو يضيف في قصيدة أخرى:

أَدِيـنُ لِـرَبٍّ يَـسْـتَـجِـيـبُ وَلاَ أَرَى

أَدِينُ لِمَنْ لاَ يَسْمَعُ الْدَّهْرَ دَاعِيَا[2]

إنّ هذه الأشعار سواء كانت لورقة أو لزيد تُثبت أنّ فكرة «الله» المجرّد، السّماوي، الحقيق وحده بالعبادة، بدأت تدبّ في صفوف قريش عن طريق الحنفاء. ويؤكّد المسعودي أنّ ورقة، كان ممّن يقرّ بالبعث[3]. ونسب إليه شعراً ذكر فيه النّار والثواب والعقاب بعد الموت إضافةً إلى فكرة التّوحيد[4]. والبعث كما نعلم هو ركن أساسيّ من أركان الدّيانات التّوحيديّة إذ إن الهدف منه إعطاء مغزى لعمل الإنسان في الحياة، ناهيك عن أنّه سيكون من المحاور الأساسيّة الأولى لدعوة محمّد، إلى جانب «مكارم الأخلاق» التي ستسبق حتّى الحسم في معتقدات قريش (سورة الكافرون).

---

(١) الأصفهاني. المصدر نفسه، ج٣، ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) الأصفهاني، المصدر نفسه، ج٣، ص ١١٩.

(٣) المسعودي، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٦٧، ٧٤ ـ ٧٥.

(٤) ابن حبيب، المصدر نفسه، ص ١٧١؛ ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٢٤٣، ٢٥٦؛ الأصفهاني، المصدر نفسه، ج٣، ص ١١٥ ـ ١١٩.

وتشير بعض المصادر إلى أن ورقة تنصّر بل «استحكم في نصرانيته»[1]، دون أن تخبرنا متى تمّ ذلك وعلى يد من؟ وهل تمّ في مكّة أم خارجها؟ علماً بأن المصادر ذاتها تشير إلى أنه هاجر من مكّة في وقت من الأوقات إذ «كره عبادة الأوثان وطلب الدين في الآفاق»[2]. وتضيف أن ورقة كان عارفاً بالقراءة والكتابة[3]. وكان «يكتب من الإنجيل ما شاء أن يكتب»[4]. وفي الحقيقة فرغم تأكيد المصادر على تنصّر ورقة فثمة ما يجعلنا نشك في ذلك، إذ ليس من المستبعد أن يكون الإخباريون خلطوا بين الأحناف والنصارى (الرهبان خاصّة) لتقاربٍ في بعض السلوكات (لبس المسوح، التنسّك، الانعزال...). ثمّ إنّنا لا نجد في سلوك ورقة ما يفيد تنصّره، فالطاغي عليه هو فكرة التوحيد. وإلى ذلك كيف لم يحاول، إنْ كان تنصّر فعلاً، نشر النصرانية في محيطه، وبالأحرى إقناع خديجة وأقربائه بها؟ ثم كيف له أن يتقبّل لاحقاً العلامات الأولى لنبوّة محمّد باستبشارٍ كبير ويرى فيها تحقيقاً لنبوّة عربية؟ أخيراً، فإنّ محمّداً النبيّ عندما سيسأل عن مصير ورقة بعد موته سيجيب بأنّه يتصوّره في الجنّة. ومثل هذا الموقف لا يمكن على الأرجح أن يصدر عن محمّد إلاّ

---

(١) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٢٢٣ ـ ٢٣٨.

(٢) ابن حجر، المصدر نفسه، ج٣، ص ٦٣٤.

(٣) كان الحنفاء عامّة عارفين بالقراءة والكتابة أي من «النخبة المثقفة»، انظر جوّاد علي، المرجع السابق، ج٦، ص ٤٥٦.

(٤) تذكر المصادر أنّ ورقة يكتب الإنجيل بالعبرانية. والمرجّح حسب المؤرخين المحققين أنّ خطأً تسرّب إلى هذه الرواية إذ الإنجيل لا يمكن أن يكون بالعبرانية ولا بالعربية بل الأصح أنّه مكتوب بالآراميّة أو السريانيّة. انظر تفسير سورة العلق في تاريخ الطبري؛ وتاريخ اليعقوبي، ج١، ص ٢٩٨؛ والأغاني، ج٣، ص ١١٣؛ والبلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ١٠٦.

إذا تعلّق الأمر بحنيف.

إنّ اهتمامنا بورقة بن نوفل وباتجاهه التّوحيدي كلّ هذا الاهتمام يهدف إلى إبراز المناخ العقائدي الذي عاشت فيه خديجة داخل محيطها العائلي المقرّب منها. فكلّ المصادر تؤكد على صلة خديجة بورقة. لذلك لا نستبعد أنها كانت على اطلاع على اهتماماته، فضلاً عن اطلاعها على العقائد التوحيدية السابقة، خصوصاً وأنّنا لا نعثر في كتب الإخباريين على ما يشير إلى ارتباط خديجة بالعقائد العامة لقريش وحماسها لها بشكل خاص. ولا نعتبر ذلك بالأمر المستحيل بالنسبة إليها، فشخصيتها تؤهّلها لذلك ومساعدة ورقة لها أيضاً، علماً بأن البلاذري يذكر أن أختاً لورقة، أي إبنة عم لخديجة تدعى قتيلة بنت نوفل، كانت «تنظر في الكتب»[1].

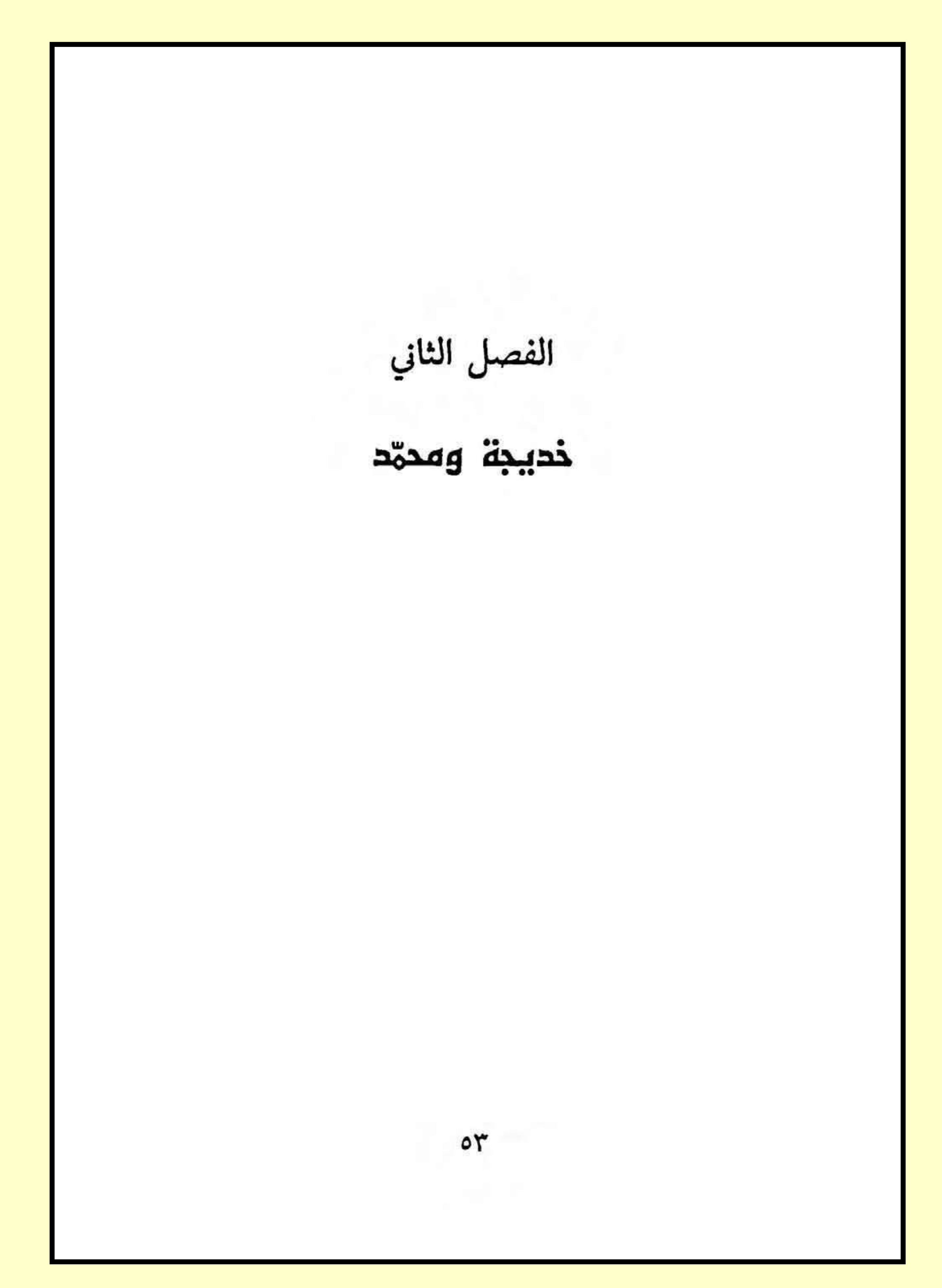
فالاهتمامات العقائدية إذن لم تكن غريبة عن الوسط الذي تعيش فيه خديجة وهي تندرج ضمن مناخ عام تعيشه مكة. كان فقدان الثقة في معتقداتها الوثنية بدأ يطفو إلى السطح لأنها لم تعد تلبي الحاجة الروحية والفكرية والإجتماعية لأكثر عناصر قريش تطلعاً إلى المستقبل، وطموحاً إلى الجديد الأرقى. ومن هنا كان البحث عن معتقد توحيدي أكثر تجريداً وأكثر إقناعاً بسلطته ونفوذه على الكون وعلى مصائر البشر. ولِمَ لا تكون خديجة على علم بهذا التيار الجديد؟[2] بل ليس ثمة ما يجعلنا نستبعد إمكانية تعاطفها معه دون أن يعني ذلك تخلّيها على صعيد الممارسة عن بعض عبادات قومها.

---

(١) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ٨١.

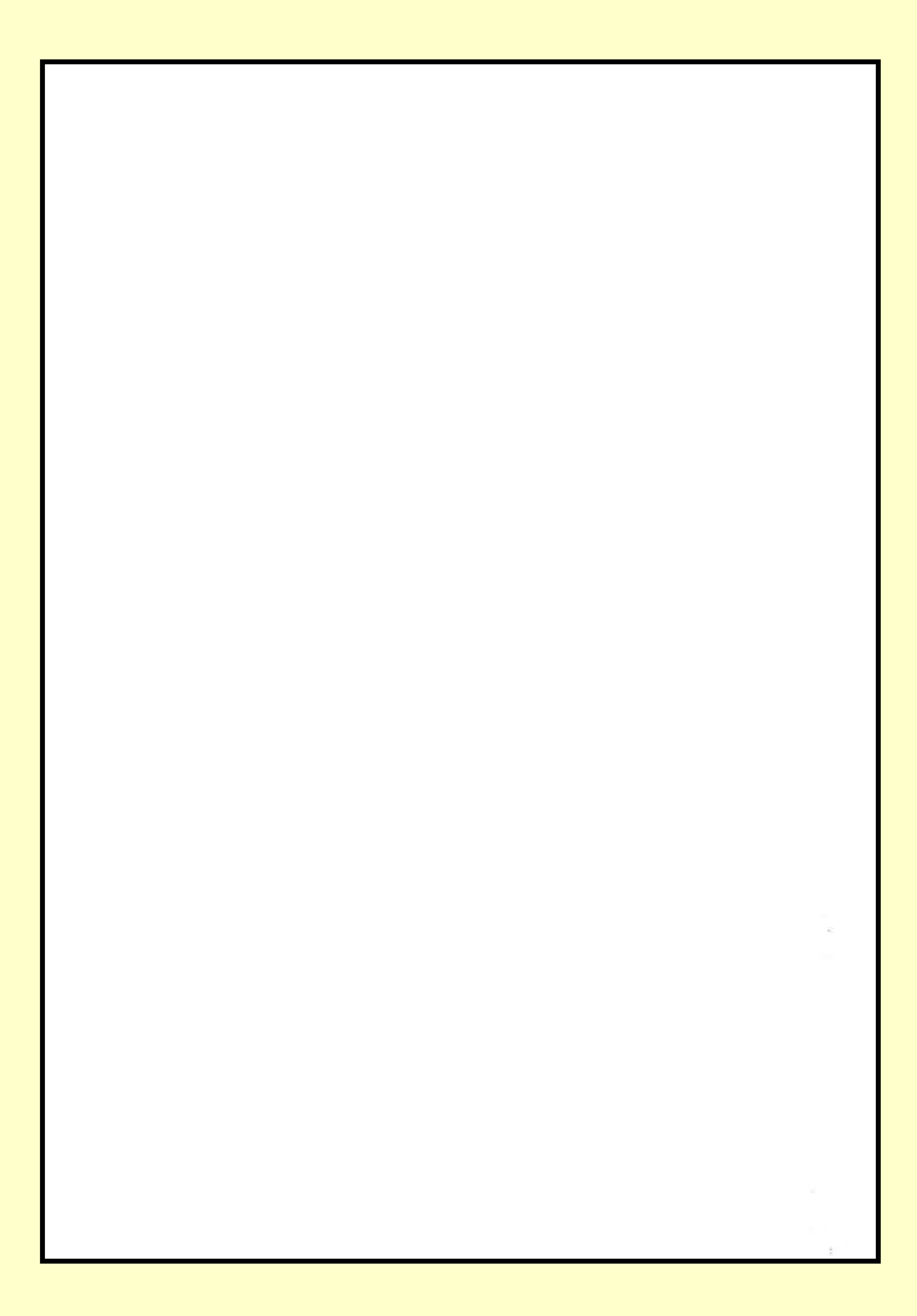
(٢) راجع دراسة جورجي: Jurgi (Edward), «Khadija, Mohamed's First Wife», *The Moslem World*, 26 (1936), pp. 197 - 199.

إن ما تناولناه أعلاه من عناصر يبرز لنا معالم شخصية خديجة. فهي من حيث النسب تنتمي إلى وسط شريف ليس بالمال والعدد والشهامة فحسب وإنما بالسلطة أيضاً، وهو ما يجعلها قريبة من الحياة السياسية لمكة. وعلى مستوى آخر فقد كانت تتمتع باستقلاليتها المادية، فهي صاحبة مال وتجارة، وهو ما لم يتوّفر لمعظم النساء في ذلك الوقت. كما أنها كانت على الأرجح منفتحة ذهنياً على القضايا العقائدية لعصرها من خلال الوسط الذي عاشت فيه. كل هذه العناصر تتيح لنا الاستنتاج بأن خديجة لم تكن كأي امرأة عادية في قريش. فهي ولئن لم تبرز في الحياة العامة (زعامة سياسية وغيرها)، كانت على الأقل امرأة ذات شخصية مستقلّة وقوية ومتفرسة، وهو ما سيكون له انعكاساته على علاقتها بمحمد وسلوكها معه.



الفصل الثاني

خديجة ومحمّد



- I -

خديجة تختار زوجها

كانت خديجة أمّ الأولاد الثلاثة (هند وهالة وهند) تختار بنفسها وكلاء تجارتها. وقد قرّرت ذات يوم أن تختار محمّد بن عبد الله وكيلاً. وكان محمّد نفسه في حاجة إلى مورد رزق.

لقد كفله عمّه أبو طالب بعد أن توفيّ جدّه عبد المطلب وأمّه آمنة. لكنّ أبا طالب ساءت ظروفه الماديّة في سني الأزمة التي عرفتها مكة والتي طالت العديد من النّاس. فلم يعد بإمكانه إعالة ولده الكثير وابن أخيه[1]. فطال الفقر محمّداً كما طال أبناء عمّه.

غير أن محمّداً الفقير كان مشهوداً له بسمو الخلق: فهو الصّادق، الأمين، الكريم، حسب ما تصفه الرّوايات[2]. وهذا ما عزّز مكانته المعنويّة لدى أهل مكة. لم يحفل بما كان يحفل به شبابها، وخاصّةً من أبناء أرستقراطيّة قريش، من لهو وخمر وحبّ ومنازعات.. إلخ. وقد

(١) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٢٠٠ هامش (١)؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج١، ص٧١.

(٢) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٢٠٠ - ٢٠١؛ ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص١٦.

يكون يتمه المبكّر زاده تواضعاً. كما قد يكون فقره دفعه إلى مزيد من التمسّك بزاده الأخلاقي الذي كان له وزنه في الحياة القبليّة. تذكر المصادر أنّ خصال محمّد الأخلاقية كانت على رأس الاعتبارات التي حملت خديجة على انتدابه ليرأس تجارتها إلى الشّام وهو في «الخامسة والعشرين». فهل كان ذلك هو السّبب الوحيد؟ أم كان في نيّتها بعدُ الزّواج منه ممّا يفسّر تودّدها إليه وإكرامه ووعده بإعطائه ضعف ما كانت تعطي لغيره من الوكلاء[1]. ليس ذلك مستبعداً خاصّةً وأنّ خديجة اتخذت قرارها بالزّواج من محمّد حال عودته من الشّام، أي بعد أوّل رحلة تجاريّة قام بها لمصلحتها.

وإذا كان انتداب خديجة محمّداً وكيلاً لتجارتها ليس بالأمر الغريب، رغم أنّه نادر، ويُمكن اعتباره داخلاً في نطاق المعاملات، فإنّ ما يسترعي الانتباه في سلوك امرأة في ذلك العصر، وخاصّةً ضمن مجتمع ذكوري، هو إقدامها على اختيار زوجها بنفسها. فخديجة بعد أن تأكّدت، حسب بعض الرّوايات عن طريق نفيسة بنت أميّة، من عدم اعتراض محمّد على الزّواج منها (لعبت نفيسة وفق التقاليد دور «المزوّجة»، وإنْ كان هنالك روايات[2] تنفي هذه الوساطة وتشير إلى توجّه خديجة مباشرة إلى محمّد)، بعثت إليه وذلك إثر عودته من الشّام[3]

---

(١) ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص١٦.

(٢) ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص١٦.

(٣) لن نتعرّض هنا إلى ما دار بين ميسرة وخديجة من حديث لا يدخل في باب الواقع بقدر ما يدخل في باب الأساطير النبويّة (إظلال الملكين إيّاه، قول الرّاهب...). انظر ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

وخاطبته قائلة: «يا ابن عمّ[1] إنّي رغبت فيك لقرابتك، وسيطتك في قومك، وأمانتك وحُسْن خلقك، وصدق حديثك»، ثمّ عرضت عليه الزواج منها[2].

إنّ في موقف خديجة هذا جرأةً كبيرةً تدلّ على أنها كانت سيّدة نفسها وصاحبة القرار في ما يتعلق بحياتها ومستقبلها. وإنّنا لا نجد في الحقيقة معلومات كثيرة حول الحياة الاجتماعيّة في مكة، وخاصّة على مستوى الزواج حتى نتمكّن من وضع موقف خديجة موضعه الصحيح من حيث العادات والتقاليد السائدة قبل الإسلام. لكن يُمكن القول، ودون مجازفة، إنّ ما هو متوافر من معلومات يؤكد أنّ مثال خديجة لم يكن شائعاً، بل كان نادراً جدّاً في مكة رغم المعاملة الخاصّة التي كانت تحظى بها النّساء الشريفات[3]. فكُتُب التاريخ تذكر أنّ الفتيات كنّ يُزوَّجن في سنّ مبكرة تصل حتى السادسة والسّابعة[4]. وكان ذلك يتمّ من قبل آبائهنّ أو أوليائهنّ. كما تذكر أنّ المطلقات والأرامل كنّ يتزوّجن ثانيةً بصورة

---

(1) خديجة ومحمّد يشتركان في جدّهما: قُصيّ بن كلاب.

(2) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٢٠٠ ـ ٢٠١؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٧، ص٨٠؛ ابن حبيب، المصدر نفسه، ص٧٨.

(3) راجع دراسة جوّاد علي في المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام حول: «الأحوال الشخصيّة»، ج٥، ص ص ٥٢٦ ـ ٥٤٨.

(4) يقدّم بعض مفكّري الغرب، بمن فيهم بعض المستشرقين، زواج محمّد من عائشة بل وكل حياته الخاصة على أنها استثناء. ومن موقع عنصري لا تاريخي يحاولون تفسيرها بنفسيّة محمّد «الشاذة» أو «الخليعة». والحال أنّ ما قام به محمد لا يخرج عن العادات والتقاليد السائدة آنذاك في المجتمع. حول التهجّم على حياة محمد، انظر قائمة أسماء الغربيين الواردة في كتاب: Emile Dermenghem, *La vie de Mahomet*.

ضبيعيّة حتى ولو كان لهنّ أطفال كما أشرنا سابقاً. ولكنّ الزّواج كان يتمّ دائماً تحت إشراف وليّ تُخطب منه الفتاة أو المرأة ويزوّجها، وكان الزّوج يدفع لأهل الزّوجة مهراً. وتعيش الزّوجة تحت كفالة زوجها، تطيعه وتخدمه وتحفظ عرضه وتنجب له الولد. كانت العلاقات خارج الزّواج محرّمة من وجهة نظر العادة والتقليد. كما كان «الزّنا» والإنجاب خارج الزّواج محظورين. وإلى ذلك كله لم تكن الأنثى طالع خير، فقد كانت عرضة للوأد أحياناً وهو ما سيتعرّض له القرآن لاحقاً.

كانت المرأة في جنوب الجزيرة تتمتع بحريّة أكثر على المستوى الجنسي، وهو ما كان يُعبّر عن مخلفات نظام أمومي Matriarcat، يشكّ الدّارسون في كون مكة والشمال قد عرفاه. ومن أبرز علامات تلك الحريّة أنّ العادات والتقاليد كانت تسمح للمرأة بأن تنجب خارج الزّواج، وكان الأطفال في هذه الحالة يحملون لقب الأمّ أو الخال. ولم يكن الزّنا بالضرورة سبباً لتسليط عقابٍ على الزّوجة. كانت هذه الأخيرة في بعض القبائل تنتدب، عندما يُسافر زوجها، عشيقاً لها من قبيلتها، أعزب أو متزوّجاً على قاعدة خصال معنويّة بارزة حتى يكون حقيقاً بالأطفال الذين ستنجبهم منه. وكانت هذه العادة تُسمّى «الاكتساب»، وكان الطفل النّاجم عن العلاقة المذكورة يسمّى «الفرخ»، دون أن يكون في ذلك ذمّ له أو قدح في نسبه. وإلى ذلك كله تشير بعض الدّراسات إلى أن جنوب الجزيرة عرف، في إطار نظام الأموميّة، ظاهرة تعدّد الأزواج Polyandrie. وقد عرفت المدينة (يثرب) تأثيرات من العادات والتقاليد الأمويّة بحكم الهجرة اليمنيّة إليها. يقول يوسف شُلحد: «ويتساءل المرء لماذا كانت المرأة المدنيّة في عصر الهجرة تتمتّع بحريّة أكبر من المرأة المكيّة؟ والجواب أنها

كانت وريثة الحقّ الأمومي القادم من اليمن»[1].

على هذا الأساس نرجّح أنّ اختيار خديجة لزوجها بنفسها في المجتمع المكّي الذكوري نابع من اعتدادٍ بالنفس، وقوّة شخصيّة مردّها ما بلغته خديجة من نضج على مستوى السنّ والعقل والتجربة الاجتماعيّة، المكتسبة من التجارة التي تُعوّد المرء على أخذ المبادرة.

وإذا كانت أخلاق محمّد وشبابه من العوامل التي شجّعت خديجة على «عرض نفسها عليه»، فإنّنا لا نشكّ في أنّ وضع محمّد المادي (الفقر)، مقارنةً بوضع خديجة الميسورة، كان من العوامل التي شجّعتها على المبادرة بالزّواج منه رغم أنّها تكبره سنّاً. أمّا محمّد فإنّ من شأن زواجه من خديجة أن يوفّر له الغنى والطمأنينة. ومن الملاحظ أنّ محمّداً إذ قَبِل الزواج، فإنه لم يعر أهميّة للموقف الاجتماعي الذي كان ينظر إلى «الزّواج بالثيب» نظرة احتقاريّة. فهو زواج يعزف عنه الشباب ويُعيِّر به من يقدم عليه إذ يُتّهم بالوهن الجنسي والطمع في مال الزّوجة[2]. إنّ محمّداً نفسه، «النبيّ والرسول»، سيفضّل لاحقاً في أحاديثه البكر على الثيب[3].

وفي الحقيقة، فإنّنا نجد أنفسنا أمام بعض الإشكاليات التي تهمّ سن خديجة ومحمّد عند زواجهما ببعضهما. فالرّواة والمؤرّخون يتفق

(١) المعلومات الواردة في هذه الفقرة مستقاة من مقال: Chelhod, Joseph; «Du nouveau à propos du "matriarcat" arabe», *Arabica*, t. XXVIII; Fev 1981, pp. 76 - 106.

(٢) راجع جوّاد علي، المرجع نفسه، ج٤، ص٦٣٥.

(٣) صحيح البخاري، باب الثيبات، كتاب النكاح، ج٥، ص ص ١١٩ ـ ١٢٠.

معظمهم على أنّها كانت في الأربعين[1]، بينما كان هو في الخامسة والعشرين. ويذهب نفرٌ منهم إلى أنها كانت في الثامنة والعشرين[2] وهو في الحادية والعشرين[3]. ويتأتى الإشكال من كون العرب، قبل عمر بن الخطاب، ما كانوا «يؤرّخون التاريخ»، بل إنّهم كانوا يعتمدون في «تأريخهم» بعض الأحداث، مثل أيّام العرب أو الحروب أو الكوارث الطبيعيّة، نقطة استدلال[4]. وهذا من شأنه أن يؤدي إلى كثير من الخلط وعدم الدقة.

فاعتبار سنّ خديجة عند زواجها أربعين سنة لا يمكن إلا أن يكون مبالغاً فيه، إذ لا يُعقل أن تظلّ تنجب إلى حد الخامسة والخمسين. فإذا كان الإنجاب إلى حدّ السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين ممكناً، فهو في الخامسة والخمسين يبدو مستحيلاً إلا بمعجزة، خصوصاً وأنّ الرّوايات تذهب إلى أنّها كانت على مدى الأربع عشرة سنة التي تلت زواجها تضع مرّة كلّ سنتين!! ونحن هنا أمام إشكال، فإمّا أن يكون عمر خديجة عند زواجها بمحمّد أقلّ ممّا ذكره الإخباريون والمؤرّخون حتى تظلّ تنجب على مدى تلك الفترة، أو أن يكون إنجابها لبعضٍ من أطفالها

---

(١) تتفق أغلب الرّوايات على أنّ سن خديجة عند زواجها بمحمّد كان أربعين سنة: رواية الواقدي بسند حكيم ابن حزام بن أخي خديجة (ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨ ص١٥)؛ رواية هشام بن محمّد الكلبي (الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٠)؛ رواية الزّبير بن بكار (الذّهبي، سيرة أعلام النّبلاء، ج٢، ص٨٢).

(٢) ابن حبيب، المحبّر، ص٧٩؛ ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص١٧.

(٣) وقيل كان سن محمّد ثلاثين كما قيل سبعاً وثلاثين. انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٤، ص٢٨٠؛ ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص١٨٧، هامش (١).

(٤) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، ص١٣٨.

بدايةً من سن معيّنة محض خيال من الرواة، خصوصاً وأنه إذا كان لدينا ما يُثبت أن خديجة أنجبت أربع بنات فلا وجود لما يُثبت أو ينفي أنها أنجبت أولاداً عدا روايات الإخباريين وإشارة القرآن إلى أن محمّداً قد عيِّر من قِبَلِ خصومه بالأبتر[1]. ونحن نرجّح الاحتمال الأوّل على الثاني، أي أنّ خديجة تزوّجت في عمرٍ دون الأربعين وربما يفوق الثامنة والعشرين. وعلى هذا الأساس، فإننا نشكّ في تاريخ ولادتها الذي تذكره الروايات.

أمّا بالنسبة إلى سن محمّد، فإن السؤال الذي يُطرح هو التالي: ما سبب بقائه بلا زواج حتى تلك السن التي تُعتبر متقدّمة في ذلك العصر؟ كان الطفل إذا بلغ صار رجلاً وجاز له حينئذ أن «يفعل فعل الرجال»، أي أن يتزوّج ويحمل السلاح... وكان سنّ زواج البنات أيضاً بلوغهنّ[2]. ونحن لا نعتقد أنّ فقر محمّد يمكن أن يكون سبباً في تأخر زواجه، فقد كانت له قريبات وكان بالإمكان أن يتزوّج منهنّ بحكم مكانته المعنويّة. والأرجح، إذا صحّ أنّه تزوّج خديجة في الخامسة والعشرين، أنّ سبب تأخر زواجه يكمن في طبعه الذي كان فيه شيء من الانطواء على النفس والنزوع إلى التفكير والتأمّل. وإذا أضيف ذلك إلى فقره فيُمكن أن يكون سبباً في أنّ محمّداً لم يكن يضع الزواج ضمن اهتماماته الملحّة. ولسائلٍ

---

(١) سورة الكوثر، ٣/١٠٨. و«الأبتر» حسب كتب التفاسير هو من لا عقب له سواء بعدم إنجاب الذكور أو بموتهم في سنّ مبكّرة: الطبري، تفسير، ج٣٠، ص٣٢٨؛ الرازي، تفسير، ج٣١، ص١٣٢؛ القرطبي، المصدر نفسه، ج٢٠، ص ص ٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) جوّاد علي، المرجع نفسه، ج٤، ص٦٥٤. وممّا جاء فيه: «والبلوغ إدراك الغلام والجارية. وقد كان أهل مكة إذا بلغت عندهم الجارية أخذوها إلى دار الندوة فدرّعوها بها علامة على بلوغها».

أن يسأل أيضاً: هل كانت لمحمّد علاقات بالنساء، قبل زواجه بخديجة؟ فقد كان التسرّي شائعاً، أم أنّه كان متعفّفاً، يرفض الزنا كما سيرفضه لاحقاً في نبوته؟

ومن المعلوم حسب المصادر أنّ خديجة وإنْ زوّجت نفسها بنفسها، فقد احترمت التقاليد القبليّة إذ بحثت عن وليّ يزكّي ذلك الزّواج. فخطبها من جهة محمّد عمومته وعلى رأسهم أبو طالب وحمزة[1]. وكان أبو طالب صاحب خطبة النّكاح، فركّز فيها على المآثر الأخلاقيّة لابن أخيه قائلاً: «الحمد لله الذي جعلنا من ذريّة إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضيء معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه. وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكّام على النّاس». ثم قال: «إنّ ابن أخي هذا: محمّد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلاّ رجح به. فإن كان في المال قلّ، فإن المال زائل، وأمر حائل، ومحمّد من عرفتم قرابته، وقد خطب "خديجة بنت خويلد" وبذل لها من الصّداق ما آجله وعاجله من مالي، وهو بعد هذا والله نبأ عظيم، وخطر جليل»[2].

في هذه الخطبة توكيد واضح من أبي طالب على عناصر الشّرف المعنويّة (الشرف الرّوحي)، خصوصاً تلك التي تتمتع بها عشيرة محمّد (بنو هاشم): فقد كانوا يتولون السّقاية والرّفادة وبئر زمزم، وهي وجاهة ذات صلة بالكعبة[3]. وبالمقابل فهي تقلل من أهميّة فقر محمّد (قلّة

---

(١) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٢٠١؛ ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص١٧؛ الطّبري، تاريخ، ج٢، ص٢٨٢.
(٢) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج١، ص٧٤.
(٣) الطّبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٢٥٢.

المال) باعتبار المال مظهراً زائفاً.

أمّا من جهة خديجة، فأغلب الرّوايات تشير إلى كونها أحضرت عمّها عمرو بن أسد[1]. وتذهب بعض الرّوايات (رواية الزّهري) إلى أنّ أباها خويلداً هو الذي زوّجها، وتضيف أنّها أسكرته لكسب موافقته على الزّواج[2]. وليس لهذه الرّواية، إنْ صحّت، من مغزى سوى تحفّظ أهل خديجة على زواجها بمحمّد، خصوصاً وأنّ الرّواة يقولون إنّ خويلداً لمّا صحا وعلم بما هو حاضر عليه وقيل له ما هو شاهد عليه أنكر. ثمّ رضي بهذا الزّواج وأمضاه حسب رواية الزّهري[3].

وما يجلب الانتباه في خاتمة هذه الرّواية كلمة «أمضاه»، ممّا يعني احتمال وجود عقد زواج مكتوب بين محمّد وخديجة. وليس لدينا أيّ فكرة عن هذا العقد: هل كان عقداً عاديّاً ينصّ على مجرّد النّكاح، أم كان يحتوي شروطاً معيّنة من قبل خديجة مثلاً، تتعلق بالعصمة وبالمال؟

كما أنّ الإشارة إلى كون محمّد أصدق خديجة «ما آجله وما عاجله»، يشير إلى أنّه احترم مؤسسة المهر التي لا غنى عنها لتشريع الزواج. فالزواج بلا مهر في «الجاهليّة» كان يُعدّ غير شرعي وغير شريف بل سفاحاً[4].

وتذكر رواية الواقدي عن هذا الزّواج أنّه تمّ في بيت خديجة الذي سيسكنه محمّد معها. وقد أقامت بمناسبة خطبتها وليمة (ذبحت بقرة

---

(1) ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص١٦؛ الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٢.
(2) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٢٠١؛ الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٢٨١ - ٢٨٢.
(3) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٢٠١.
(4) تفسير الطّبري، ﴿فآتوهنّ أجورهنّ﴾ (سورة النساء ٤/ ٢٤).

لها). ونفهم من عبارة أبيها لمّا صحا من سكرته: «ما هذا العقير وما هذا العبير وما هذا الحبير؟» أنّ الجوّ كان حافلاً. فهذه العبارة تشير إلى الذبيحة كما تشير إلى زينة أبي خديجة[1].

---

(١) الطّبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٣.

- II -

خديجة ومحمّد من الزواج إلى البعث

انتقل محمّد إذن إلى العيش في منزل خديجة[1] رغم أنّ العادة كانت تقضي بانتقال الزّوجة إلى محلّ سكنى زوجها. وما من شكّ في أنّ فقر محمّد الذي كان يعيش في منزل عمّه أبي طالب من جهة، وثراء خديجة من جهة ثانية، كانا محدّدين في انتقال محمّد إلى العيش عند زوجته. وبالتالي، وكما سبق أن ذكرنا، من غير المرجّح أن تكون سكنى محمّد عند خديجة أثراً من آثار نظام أمومي معيّن باعتبار أنّ كلّ الدّلائل تشير إلى السيطرة الذكوريّة في مكة.

ومن الملاحظ أنّ الدّارس لا يعثر على أخبار كثيرة عن حياة محمّد وخديجة بعد زواجهما. فكلّ الكتب تكتفي بذكر أنّهما عاشا حياة هادئة ورزقا الولد. وكان القاسم، الذي سيكنّى به محمد (أبو القاسم) أول ولدهما حسب معظم الروايات. لكنه توفي بعد عامين من ميلاده. ولا يُستبعد أن يكون الزوجان تألّما من ذلك لحرصهما، شأنهما شأن كل العرب، على إنجاب الولد وخاصة منهم الذكور الذين يضمنون العقب.

---

(١) ذكر الأزرقي في كتابه أخبار مكة: «ومنزل خديجة بنت خويلد زوج النبيّ ﷺ وهو البيت الذي كان يسكنه رسول الله ﷺ وخديجة وفيه ابتنى بخديجة. وولدت فيه خديجة أولادها جميعاً، وفيه توفيّت خديجة. فلم يزل النبيّ ﷺ ساكناً [فيه] حتى خرج إلى المدينة مهاجراً...»، ج١، ص١٩٩.

ولكن موت القاسم لن يكدّر حياة الزوجين التي ستستمر لتثمر إلى حد البعث أربع بنات بقين على قيد الحياة وهنّ: زينب وأمّ كلثوم ورقيّة وفاطمة[1]. كما تذكر أنّ محمّداً واصل العناية بتجارة خديجة[2]، وأنّه كان يتردّد على غار حراء.

وقد يعود الغياب الكامل للاخبار عن تلك الفترة إلى عدد من الأسباب: أولها، أنّ العناية بحياة محمّد وسيرته بما في ذلك زواجه بخديجة لم يبدأ إلاّ في فترة لاحقة بعد وفاته؛ ثانيها، أنّ اهتمام الرّواة كان مركّزاً على فترة البعث وبشكل أخصّ على ما بعد هجرة محمّد إلى المدينة؛ ثالثها، أنّ الاهتمام بخديجة كان من زاوية علاقتها بمحمّد النبيّ وليس بوصفها شخصيّة مستقلة؛ رابعها، أنّ أخبار المصادر قليلة حول خديجة نفسها وخاصّةً حول حياتها قبل البعث.

لكن غياب المعلومات لا يمنعنا من طرح عدد من التساؤلات ومحاولة الإجابة عنها ولو بفرضيات في ما يخصّ هذه الفترة الهامّة من حياة محمّد، أي بين زواجه والبعث، وقد دامت حسب الروايات خمس عشرة سنة، وهو أمر لا يمكن الحسم فيه لعدم دقة الإخباريين والمؤرّخين. فهذه الفترة هي، في الواقع، فترة الإعداد الجدّي للنبوّة. فمحمّد رشد وتزوّج وتوفّر له الاستقرار العائلي والأمن الماديّ وولدت له خديجة الذريّة. وكلّ هذه العوامل وفّرت له الوقت والطاقة للتفكير والتأمّل. والغريب في الأمر أنّ الرّواة عوض العناية بهذه الفترة نراهم

---

(١) انظر على سبيل المثال: البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٣٩٦ ـ ٤٠٥؛ ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص ١٦؛ ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٢٠٢؛ ابن حبيب، المصدر نفسه، ص٧٩.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٨١.

أهملوها رغم أنّها حاسمة. يُخبرون عن محمّد (ولو إخباراً قليلاً) من ولادته إلى يوم زواجه، وينسبون إليه عدّة كرامات (ميلاد خاص، شقّ القلب وتطهيره، السفر إلى الشام وقصّة الرّاهب...) تنبىء من منظور المخيال الشّعبي بمستقبل نبوّة. لكن ما الذي جعلهم يُوقفون هذه الكرامات عند زواجه بخديجة؟ فطوال مرحلة الزواج التي سبقت البعث والحاسمة في نبوّة محمّد ورسالته حسب رأينا، لا نجد ذكراً لخوارق في حياته إلى حدّ اليوم الذي سيظهر له فيه جبرائيل. وهو ما يدعو إلى الاستغراب. فلا محمّد أخبرنا عن هذه الفترة، ولا بناته حدّثننا بالتّفصيل عن حياة أبويهما. أمّا خديجة فقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنوات ولم تعش لاحقاً لتروي عن حياتها وحياة محمّد عندما بدأت العناية بذلك تقنيناً للسنّة: ماتت ولم يحرز الإسلام بعد النّصر النّهائي عقيدةً ودولةً.

وبطبيعة الحال، فهذه الفترة تهمّنا بقدر ما كان فيها لخديجة من دور، لأنّ موضوع دراستنا هذه ليس محمّداً. ورغم صمت المصادر، وهو ما يدعونا إلى تقديم فرضيات أكثر منه استنتاجات يقينيّة، فإنّنا في عملنا هذا سنعتمد على بعض الإشارات الواردة في كتب المؤرّخين.

لا شكّ في أنّ علاقة خديجة بورقة كانت متطوّرة. تذكر الكتب أنّه كان لها أكثر من ابن عمّ[1]، لكن علاقتها بورقة كانت الأبرز. وإذا بحثنا عن تفسيرٍ لذلك فقد نجده في اهتمامات ورقة الروحيّة والعقائديّة والفكريّة التي قد تكون وراء انجذاب خديجة إليه.

وبالنّظر إلى هذه العلاقة، فليس من المستبعد أن يكون محمّد طرفاً فيها، كما لا نستبعد أن تكون اهتمامات ورقة محور نقاش بين خديجة

---

(١) انظر شجرة نسب بني أسد بن عبد العزّى، ص ٢٦.

ومحمّد الذي يرجّح، وهو الأكثر منطقاً وقبولاً، بأنّه كان مهموماً بدوره بمستقبل قومه. كما يرجّح أنّه كان على اطلاع على الأديان والمعتقدات الأخرى في الجزيرة العربيّة من خِلال صِلاته وأسفاره.

إنّ خديجة التي تكبر محمّداً سنّاً والتي كانت تتمتّع بشخصيّة قويّة قد يكون لها رأي هي أيضاً في الأزمة الأيديولوجيّة التي كانت تعيشها قريش. وقد يكون لها حتى تأثير إيجابي على محمّد نفسه دعماً لاهتماماته التوحيديّة. وعلاقة محمّد بورقة عن طريق خديجة قد تكون من بين مصادره للتعرُّف على الأديان القديمة لما عُرف عن ورقة من اطلاع عليها واستيعاب لها من خلال الكُتُب والأسفار والالتقاء بالأحبار والرهبان.

تذكر الرّوايات أنّ ميسرة حكى لخديجة بعد العودة من أوّل رحلة تجاريّة له إلى الشام، بصحبة محمّد، أنّ أحد الرّهبان تنبّأ لهذا الأخير بالنبوّة. كما أنّ الملائكة كانت تظلله[1] وتقيه من الشمس. وتضيف الرّوايات أنّ خديجة ما أن سمعت بذلك حتى أبلغته إلى ورقة الذي علّق قائلاً: «لئن كان هذا حقاً يا خديجة إنّ محمّداً لنبيّ هذه الأمّة وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمّة نبيّ يُنتظر هذا زمانه»[2]. وقد ظلّ ورقة حسب هذه

(١) يذكر ابن هشام عن أبي إسحاق في السّيرة النّبويّة، ج١، ص١٩٩، رواية هذه الحادثة كالتالي: «فنزل رسول الله ﷺ في ظلّ شجرة قريباً من صومعة راهب من الرّهبان، فاطّلع الرّاهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا الرّجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الرّاهب: ما نزل تحت هذه الشّجرة قط إلاّ نبيّ». انظر التعليق على هذه الرّواية في الهامش رقم (٣) من المصدر المذكور، (سيرة ابن هشام).

(٢) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٢٠٣.

الرّوايات، ينتظر ذلك الحدث. ولمّا استبطأ الأمر نظم شعراً ضمّنه إحساساته، ومن جملة ما جاء فيه:

لَجَجْتُ وَكُنْتُ فِي الذِكْرَى لَجُوجَا
لِهَمٍّ طَالَمَا بَعَثَ النَّشِيجَا
وَوَصْفٍ مِنْ خَدِيجَةَ بَعْدَ وَصْفٍ
فَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يَا خَدِيجَا
بِبَطْنِ المَكَّتَيْنِ عَلَى رَجَائِي
حَدِيثُكِ أَنْ أَرَى مِنْهُ خُرُوجَا
بِمَا خَبَّرْتِنَا مِنْ قَوْلِ قِسٍّ
مِنَ الرُّهْبَانِ أَكْرَهُ أَنْ يَعُوجَا
بِأَنَّ مُحَمَّداً سَيَسُودُ فِينَا
وَيَخْصِمُ مَنْ يَكُونُ لَهُ حَجِيجَا
وَيَظْهَرُ فِي البِلاَدِ ضِيَاءُ نُورٍ
يُقِيمُ بِهِ البَرِيَّةَ أَنْ تَمُوجَا
فَيَلْقَى مَنْ يُحَارِبُهُ خَسَاراً
وَيَلْقَى مَنْ يُسَالِمُهُ فُلُوجَا[1]

إنّ ما جاء على لسان ورقة نثراً وشعراً يؤكّد، إذا صحّت نسبته إليه، أنّ خديجة روت له شيئاً ما عن محمّد يتعلق بموضوع العقيدة والنبوّة. وقد يكون ما روته خديجة هذا اتخذ لاحقاً طابعاً أسطورياً مثلما هو الشأن في كلّ نبوّة. قد يكون ميسرة حضر حديثاً ذا طابع ديني مثلاً بين محمّد

---

(١) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٢٠٣.

والرّاهب. وقد يكون هذا الحديث أثر فيه ورفع من صورة محمّد في نفسه. وقد تكون خديجة نقلت ذلك إلى ورقة، «المرجع» في المسائل العقائديّة، فكان جوابه الذي ذكرنا.

وإنّ ما يلفت الانتباه في جواب ورقة نثراً وشعراً إيمانه بأنّ نبوّة عربيّة ستظهر إلى الوجود، مشخَّصة في محمّد: «إنّ محمّداً لنبيّ هذه الأمّة». . «إنّ محمّداً سيسود فينا» و«يخصم من يكون له حجيجا». . ثمّ انتظاره لهذا الحدث بكلّ شوق وتوق. وعلى صعيد آخر، فإنّ عبارة «ووصف من خديجة بعد وصف» تدلّ على أنّها حدّثته في موضوع محمّد أكثر من مرّة. وفي موقفِ ورقةِ تأكيد لما سبق أن قلناه من أنّ تنصّره ليس على درجة من الثبوت التي تجعله يرى في النّصرانيّة «دين الخلاص» لأهل قريش. فكأنّنا بالرّجل لم يجد فيها الجواب الشّافي والوافي، هذا إن لم يتنصّر إطلاقاً مثلما سبق أن رجّحنا، وبقي ينتظر الدين الجديد الذي يطفىء ظمأه الرّوحي. فهناك إذن إحساس تاريخي لديه بضرورة نبوّة للعرب.

ومن ناحيّة أخرى، فإنّ حديث ورقة بهذه الطريقة الحميميّة عن خديجة ومحمّد يؤكد أنّه كان على صلة بهما. وإنّنا نرجّح أنّ صلاتهم خلال الفترة التي سبقت البعث، كانت متينة وكان محورها محوراً عقائدياً بالنّظر إلى نوعيّة اهتمامات ورقة ثمّ ما سيصبح عليه محمّد في فترة لاحقة. ولسائل أن يسأل ما علاقة هذا الثالوث بالنخبة المكيّة وقتها؟ ونحن نقصد بالنّخبة أولئك الشبّان الحائزين على ثقافة معيّنة والذين كانوا يهتمّون بشؤون قومهم ويفكّرون في مصيرهم، والذين سنجد عناصر منهم في المستقبل تنحاز من الوهلة الأولى إلى دين محمّد. إنّ ما لدينا من معلومات يُفهم منه أنّ أبا بكر الذي يصغر محمّداً بقليل، والمعروف

بثقافته الواسعة في الأنساب وفي أيام العرب (وهو الجانب الأهمّ من تاريخهم وقتها) كان صديقاً له. وكان أبو بكر يعرف الشام واليمن عن طريق التجارة. كما أنّ بعض الأخبار تفيد أنّه كان يعرف بيت المقدس[1]. فعندما سيلتقي جبرائيل بمحمّد وتعلم قريش أنّ هذا الأخير «يدّعي النبوّة»، سيتنظر سادتها عودة أبي بكر من اليمن، ليطلبوا منه نصح «صاحبه» بالكفّ عن هذا «الادّعاء» كي لا يؤذوه[2]. وإلى ذلك توجد رواية تفيد أنّ أبا بكر كان في مكة عندما خاطب جبرائيل محمّداً لأوّل مرّة، وأنّه عندما لجأ هذا الأخير خاشياً على نفسه إلى خديجة، أرسلته بصحبة أبي بكر إلى ورقة[3].

ومن ناحية أخرى، فإنّ أبا بكر لم يكن معزولاً، بل كان على صلة ببعض شباب قريش ممّن هم من نخبتها أمثال عثمان بن عفّان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وطلحة بن عبيد الله[4].

والسؤال الذي يُطرح: هل من علاقة لخديجة ومحمّد بهذه «الحلقات»؟ وهل كان ثمّة من عناصرها من كان يزورهما في بيتهما؟ وهل كانت لمحمّد سفرات إلى خارج مكة؟[5] ومن كان يصحبه خلالها؟ ومن كان يلتقي في الأسواق؟ وهل كانت له علاقة بالأحناف في مكة

---

(١) راجع قصّة الإسراء والمعراج في سيرة ابن هشام، ج٢، ص ص ٣٧ ـ ٤٣.

(٢) انظر ابن الأثير، المصدر نفسه، ترجمة عبد الله بن عثمان أبي بكر الصديق، رقم ٣٠٦٤، ج٣، ص ص ٣٠٩ ـ ٣٣٥.

(٣) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٤) الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٣١٧.

(٥) خصوصاً وأنه واصل ممارسة التجارة بعد زواجه من خديجة. انظر الذهبي، المصدر نفسه، ج٢، ص٨١.

وخارجها؟ وما طبيعة هذه العلاقة؟ وإلى أيّ مدى لم تكن دعوتهم التوحيديّة تلاقي هوى في نفسه خاصّة وأنها خاليّة من الشّرك أصيلة في مقوّماتها؟ إنّ محمّداً سيعتبر نفسه كما سيعتبره القرآن على خط إبراهيم جدّ الأحناف وملهمهم أيضاً. إنّنا هنا أمام فراغ كبير يخصّ حياة خديجة ومحمّد في تلك الفترة. ومهما يكن من أمر، فمن المؤكد أن تلك «الحلقات» التي تحدّثنا عنها والتي من ضمنها «خديجة ـ محمّد ـ ورقة» لم تبح بكل أسرارها حتى نفهم التاريخ فهماً موضوعيّاً دقيقاً.

إنّ كتب التاريخ تكتفي بذكر أنّ محمّداً كان كثير التأمّل خلال تلك الفترة، وكانت له خلوات بغار حراء[1]. وكانت خديجة تساعده. وبالنّظر إلى ما نعرفه عنها من قوّة شخصيّة، بل ومن تبعيّة محمّد لها (كانت تنفق عليه من مالها)[2]، فلا نخاله يتغيّب للتأمّل دون أن تكون سنداً له. كان يعيش من مالها في حراء ويُطعم المساكين، وهي ترعى أولادهما. كما تشير كُتُب السيرة والتاريخ إلى أنّ محمّداً كان يطوف بعد عودته من غار حراء سبعاً حول الكعبة[3]. وبشكل عامّ لم يظهر عليه في نظر قومه ما يفيد أنّه «خرج عن دين آبائه وأجداده»، وهو ما سيؤاخذونه عليه بعد البعث.

(١) جاء في السيرة النبوية لابن هشام: «كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً. كانت قريش إذا دخل رمضان، خرج من يريد التحنّث منها إلى حراء فيقيم فيه شهراً، ويطعم من يأتيه من المساكين. حتى إذا رأوا هلال شوّال، لم يدخل الرّجل أهله حتى يطوف بالبيت أسبوعاً (أي سبع مرّات). ج١، ص٢٣٥. ويذكر البلاذري، أنّ أوّل من تحنّث بحراء هو عبد المطلب جد محمّد. وكان يكثر الطواف بالبيت. المصدر نفسه، ج١، ص ص ٨٤، ١٠٥.

(٢) الذهبي، المصدر نفسه، ج٢، ص٨١.

(٣) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٦؛ البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص١٠٥.

إنّ أغلب الظنّ أنّ خديجة أدركت ما يشغل بال محمّد، وهو ما قد يكون يشغل بالها هي أيضاً، فشجّعته من موقع الاقتناع لا من موقع «التبعيّة الزوجيّة» أو «العاطفيّة». رُوي عن عبد الله بن عمير: «أنّ من فضائل خديجة أنّها ما زالت تعظّم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وتصدّق حديثه قبل البعثة وبعدها»[1]. وبالنظر إلى ما عُرف عن محمّد من ميلٍ إلى العزلة والتأمّل والتفكير، وهو ما قد يجعله ذا علاقات قليلة في المجتمع، فالأرجح أن كل شيء كان يقع في الداخل، أي في بيت خديجة، وأن حواراً مستمرّاً بينه وبينها كان قائماً. وهذا الحوار إنْ شئنا هو الذي أهملته المصادر. لقد اهتمّت بزواج محمّد من خديجة وأهملت ما هو أهمّ وهو العلاقة داخل هذا الزواج، العلاقة بين شخصين متميّزين مثلما ستبيّن ذلك الأحداث.

(١) ابن حجر، الإصابة، ج٤، ص٢٨٢.

- III -

خديجة تحضر مخاض البعث وترعاه

يجمع الرّواة على أنّ خديجة كانت ملاذ محمّد في أوّل لقاء له مع جبرائيل. كان استغراق محمّد في تأمّلاته قد اشتدّ قُبيل فترة البعث، وبدأته الرؤيا وأصبح يتزع أكثر من أي وقت مضى إلى الخلوة: «كان أوّل ما ابتدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرّؤيا الصّادقة، كانت تجيء مثل فلق الصّبح، ثمّ حبّب إليه الخلاء»، قالت عائشة[1]. فلم يعد يكتفي بالذهاب شهراً كلّ سنة إلى غار حراء[2]، بل أصبح يذهب إلى الخلاء بحثاً عن الوحدة، ويغرق في التفكير والتأمّل. فكان رمضان (سنة ٦١٠م) النقطة التي «انفجر فيها النّبع»؛ كان كلّ شيء قد بلغ من النّضج ما أصبح يحتّم الانطلاق في ثورة دينيّة سيكون لها ما سيكون من انعكاسات على مصائر قريش والعرب والعالم.

تُجمع الروايات على أنّ محمّداً كان وقتها قد بلغ سن الأربعين أو تجاوزها بثلاث سنوات[3]. ولسنا ندري إن كان علينا أن نسلّم بهذا

(١) الطّبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٨؛ البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص١٠٥ (في رواية الزّهري).

(٢) انظر ص٧٢ أعلاه، الهامش (١).

(٣) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ص ١٠٣ ـ ١٠٥.

الخبر. فأصحاب هذه الروايات أنفسهم يخبروننا بما يتناقض مع ذلك حينما يذكرون أن محمّداً لمّا جمع عشيرته حول طعام بعد نزول ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾، وكان ذلك بعد ثلاث سنين من البعث، خاطبهم قائلاً: «يا بني عبد المطلب إنني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومهم بأفضل ممّا قد جئتكم به، إنني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة»[1]. وفي رواية يوردها البلاذري كما يوردها ابن سعد، كان شبّان قريش إذا مرّ بهم محمّد في مجالسهم حول الكعبة أشاروا إليه قائلين: «إنّ غلام بني المطلب يُكلَّم من السماء»، وكان ذلك في بدايات البعث[2]. إنّ صفتي «غلام» و«شاب» لا تنطبقان لغةً وعرفاً على من هو في سن الأربعين، إذ يُعتبر بكل المقاييس كهلاً. فهل يعني ذلك أن محمّداً جاءه الوحي أوّل مرّة وهو في سن دون الأربعين؟ إنه أمر وارد.

لنواصل.

كان محمّد، حسب رواية عائشة (وكلّ الرّوايات الأخرى)، في غار حراء عندما جاءه «الملك، فقال: يا محمّد، أنت رسول الله! قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثمّ زحفت ترجف بوادري، ثمّ دخلت على خديجة، فقلت زمّلوني زمّلوني! (أي دثّروني، دثّروني) حتّى ذهب عنّي الرّوع. ثمّ أتاني فقال: يا محمّد، أنت رسول الله قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل، فتبدّى لي حين هممت بذلك، فقال: يا محمّد، أنا جبريل وأنت رسول الله ثمّ قال:

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٢، ص ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٢) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص١١٥؛ ابن سعد، المصدر نفسه، ج١، ص١٣٣.

اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال: فأخذني فغتّني ثلاث مرّات، حتّى بلغ منّي الجهد، ثم قال: ﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق﴾، فقرأت. فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها خبري»[1].

هذا هو الخبر الذي روته عائشة وله تتمّة. ولكن قبل الاستمرار في عرضه يجدر بنا أن نعلّق عليه إلى هذا الحدّ. لقد جاء «الملك» محمّداً وخاطبه، فإذا بمحمّد يهرع من شدّة الخوف إلى خديجة ويستصرخها: «زمّلوني زمّلوني» فتدثره (وفي رواية أخرى يقول محمّد: «انصرفت راجعاً إلى أهلي حتّى أتيت خديجة فجلست على فخذها مضيفاً»، أي ملتصقاً)[2]. وإنها لصورة مفعمة بالمشاعر والمعاني الروحيّة. فاستصراخ محمّد أن «دثّريني يا خديجة» يتجاوز حدّ المعنى المادي البسيط، معنى إلقاء الدثار أو الغطاء[3]. إن خديجة هنا تمثّل الملجأ والملاذ. فكأنّنا بها الأم. وسواء طلب منها محمّد أن تدثّره أو جلس - كما في الرواية الثانية - على فخذها «ملتصقاً»، فالصورة التي أمامنا هي صورة الطفل (الطفل - الطفل، أو الرجل - الطفل، لا يهمّ، فالإنسان مهما كبر يظل طفلاً في علاقته بأمّه كما يظلّ طفلاً في عين أمه أي حقيقاً بلطفها وحنان صدرها...) الذي يلوذ بأمّه مرتاعاً فتحميه وتُبدِّد روعه. وما طلبُ التدثير هنا إلاّ تعبير عن رغبة في الاحتماء من أمر هائل، حتى لا

(١) الطّبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٨؛ البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص١٠٥ (في رواية الزهري).

(٢) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٨.

(٣) انظر حول معنى المدّثر: الطبري، تفسير، ج٢٨، ص١٤٤؛ الرازي، تفسير، ج٢٩، ص ص ١٨٩ - ١٩٠؛ القرطبي، المصدر نفسه، ج١٩، ص ص ٥٩ - ٦١.

يراه المرء أو لا يفكّر فيه من جديد. وإنها لصورة بليغة أيضاً، تلك التي يبدو فيها مبعوث الرب قاسياً على رسول ربّه منذ لحظة اللقاء الأولى، إذ يطلب منه طلباً فلمّا لا يجيبه لجهل بذلك الطلب «يغتّه ثلاثاً» (أي يضغط عليه ضغطاً شديداً) حتى ظنّ أنه الموت!! وفي المقابل، فإن خديجة الأم تحميه وتغطيه غطاء الرأفة والحنان. إنها «المدّثرة» بكل ما في الكلمة من معنى مادي وروحي، «مدّثرة» محمد الذي أحبت وتزوجت وأغنت واحتضنت ورعت.

ولكن خديجة لا تجسّد في هذا الموقف صورة الأم فحسب، بل أيضاً رفيقة الدرب التي عاشت مع محمد تأملاته وقاسمته مشاغله الفكرية والروحية. فكأننا بمحمدٍ عندما يستصرخها: «دثّريني يا خديجة»، يريد أن يخبرها بحصول «النبأ العظيم» المنتظر، فيطلب منها أن تدّثره أو هو يلتصق بها من هول صدمة «اللقاء» الأول مع مبعوث الرب، الذي ضاعفت من حدته ورهبته طريقة المعاملة. إن محمداً لم يتوجه، حسب كل الروايات، إلى صديق أو رفيق ولا حتى إلى أبي طالب، العمّ الذي ربّى وآوى، وإنما إلى خديجة!! إليها وإلى بيتها، فكانت أول من علم بالنبأ!! وفي رواية للحدث نفسه، عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثي الذي حضر محمداً وهو يروي ظروف بداية الوحي، أن خديجة سألته لما عاد إليها مرتاعاً: «لعلك رأيت شيئاً؟». فكأن هذا السؤال صدى لكلام أو وقائع سابقة، أو هو سؤال عن حدثٍ كان منتظراً منذ زمن. ومن البديهي أن خديجة عندما تقول «هل رأيت شيئاً؟»[1]، فإنما تعني الرؤيا في معناها

---

(١) الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٩٨. انظر حول الرؤيا: Daiber (H), «Ru'ya et Nubuwwa», *E.I.*, VII, pp. 664 - 668.

النبوي الخاص. ونحن لا نعتقد خديجة جاهلةً بأمر الرؤيا، حتى نشك في هذه الرواية ونعتبرها اختُلقت كقصةٍ في وقتٍ لاحق لإعطاء صورة معيّنة عن البعث. فليس ثمة ما يمنع خديجة من أن تكون الكلمات الاصطلاحية مثل «الرؤيا» و«الوحي» و«النبوّة» مألوفة لديها من خلال علاقتها بورقة ومحمد نفسه الذي لا شك في أنه سمع الكثير عن ذلك من خلال الأحبار والرهبان الذين لقيهم في أسفاره.

لنواصل.

وتضيف عائشة في روايتها أن خديجة لما قصّ عليها محمد ما جرى له مع جبرائيل أجابته: «أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، ووالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدّي الأمانة، وتحمل الكلّ وتقوّي الضعيف، وتعين على نوائب الحق...»[1]. وتذكر رواية أخرى أن خديجة قالت لمحمد: «أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة»[2]. فخديجة لم تُفاجأ ـ حسب هذه الروايات ـ بما حصل لزوجها ولم تفزع ولم تخف عليه، بل إنها تتصرّف تصرّفاً متزناً، حكيماً، فتجيب محمّداً: «أبشر إنّها النبوّة»! فلو لم تكن خديجة متعوّدة على الخوض في هذا الموضوع وفي أحوال أهل مكة عامّة وما يلزمها من تغييرات، ولو لم تكن عارفة بشخصية محمّد وما تكمن فيها من طاقات وقُدرات هائلة، لما أجابته مثل ذلك الجواب الهادىء واليقيني! إنها «المدثّرة» بحكمتها واتزانها وواقعيتها.

ثمّ إنّ خديجة تبرز في ردّها فضائل محمّد الأخلاقيّة فتقول إنّ

---

(١) الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٢) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ٢٣٨.

شخصاً له مثل هذه الفضائل لا يُخشى عليه. كلام خديجة هذا له أكثر من معنى، يُمكن أن نفهمه على أنّه يرسم خطاً بين أخلاق محمّد التي تشكّل «المثال» وبين الأخلاق السائدة في قريش التي بدأت تظهر عليها مظاهر الاستثراء الأرستقراطي بكلّ ما تعنيه من بروزِ فوارق اجتماعيّة وتبجّح بالثراء واحتقارٍ لضعيفي الحال والمساكين وانغماسٍ في الملذات وانحلالٍ للأخلاق وتراجعٍ لروح التضامن... إلخ.

إنّ محمّداً نفسه سيقول لاحقاً «جئتُ لأتمّم مكارم الأخلاق»، بل إنّ السّور الأولى من القرآن[1] سيكون محورها الأساسي إلى جانب الدّعوة إلى الإيمان بالله، «مكارم الأخلاق». ويمكننا أن نتبيّن من خلال هذه السّور نقداً للمظاهر السّلبيّة التي بدأت تبرز في حياة قريش. يركّز القرآن بشكل خاصّ على نقد حبّ المال من جهة وسوء معاملة اليتامى والمساكين من جهة أخرى. ففي سورة الضحى أمر لمحمّد: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾[2]. وفي سورة الماعون يربط القرآن بين تكذيب الدين (أي التكذيب باليوم الآخر) وسوء معاملة اليتيم والمسكين: ﴿أَرَأَيْتَ الذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين، فَذَاكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[3]. وفي سورة الفجر يتّهم القرآن أهل مكة اتهاماً مباشراً: ﴿كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمَّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾[4]. وفي

(١) من هذه السّور نذكر: الماعون، العصر، الضّحى، البلد، الفجر...
(٢) سورة الضّحى ٩٣/ ٩ ـ ١٠.
(٣) سورة الماعون ١٠٧/ ١ ـ ٣.
(٤) سورة الفجر ٨٩/ ١٧ ـ ٢٠.

سورة البلد نقد للإنسان الذي ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً﴾[1]. ثمّ نصح: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[2]. ففي هذه السورة تبرز أيضاً فكرة تحرير العبد كسلوك أخلاقي محبّذ.

إنّ المحاور التي تبرز من خلال هذه الآيات تخصّ، كما رأينا، التكذيب باليوم الآخر ورفض إطعام المسكين ومساعدة اليتيم والفقير مقابل حبّ المال والتكبّر. وهذه الأخلاق على طرف نقيض من أخلاق محمّد. ألم يكنْ يطعم المسكين ويحنو على اليتيم وهو اليتيم، ويقري الضيف ويُكنّى بالأمين والصادق؟ إنّها الأخلاق التي ينبغي أن تأخذ مكان الأخلاق السائدة في قريش، حتى تصلح أمورها ولا تعصف بها الانقسامات والانكسارات. فالتكافل الاجتماعي الذي تشدّه قيم التواضع والتفكير في العاقبة واليوم الآخر له، في هذه الحالة، هدف معيّن: إنقاذ قريش من الانحلال الذي يدفع إليه الثراء الفاحش وتبعاته.

كان المنطلق إذن في الدين أخلاقيّاً يهمّ مظاهر السلوك الاجتماعي، ثم إنّه سيتصاعد ليصبح التوحيد وهجر عبادة الأصنام نهائيّاً على رأس «مكارم الأخلاق». وبذلك ستكتمل صورة العقيدة الإسلامية إن شئنا ولا غرو في ذلك، فالتحوّلات العظمى في التاريخ تؤشّر عليها في البداية ثورات في الأفكار والعقائد التي قد تبدو أول الأمر بسيطة، لكنّها سرعان ما تتحوّل إلى قوّة هائلة تدمّر وتبني في الآن ذاته؛ تدمّر ما فات وقته، وتبني أساساً جديداً يتطلبه واقع ناشىء من رحم الواقع القديم.

---

(۱) سورة البلد ٩٠/ ٦ ـ
(۲) سورة البلد ٩٠/ ١٢ ـ ١٦.

لنواصل.

إنّ خديجة التي كانت تقدّمت في السنّ في ذلك الوقت أدركت بحسّها وعقلها ما يحصل. تقول عائشة: «انطلقت به خديجة (أي محمّد) إلى ورقة بن نوفل بن أسد، قالت: اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره محمّد خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس[1] الذي أنزل على موسى بن عمران. ليتني فيها جذع! ليتني أكون حياً حين يُخرجك قومك! قال محمّد: أمخرجيّ هم؟ قال: نعم، إنّه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلا عودي، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»[2]. وفي رواية أخرى، تذهب خديجة منفردة إلى ورقة لتعلمه، فتخبره بما أخبرها به محمّد فيقول: «قدوس، قدوس (أي طاهر طاهر) والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمّة، فقولي له: فليثبت». ثم يتمّ اللقاء بين محمّد وورقة في الكعبة أثناء الطّواف حولها، فيعيد محمّد خبره فيقول له ورقة: «والذي نفسي بيده، إنك لنبيّ هذه الأمّة، ولقد جاءك الناموس الذي جاء موسى...»[3].

إنّ لجوء خديجة إلى ورقة في أوّل حادث من أحداث البعث يؤكد ما قلناه سابقاً من أنّ علاقتها به كانت علاقة بمرجع في الأمور الدينيّة. كان ردّ فعلها الأوّل طمأنة محمّد عندما أخبرها بما حصل. ولم يكن تطمينها له من باب جبر الخاطر، بل كان تطميناً جاداً. ثم أخذته إلى ورقة

(١) الناموس «في الأصل صاحب السّر أو صاحب سرّ الوحي، والمراد به جبريل عليه السلام». الأغاني، ج٣، ص١١٤؛ الطبري، تاريخ، ج٢، ص٣٠٢.
(٢) الطّبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.
(٣) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٨.

للحصول «على اليقين». ورقة أيضاً سأل عن «الرؤيا»، أولى علامات النبوّة، ليتحقق من أن ما حصل لمحمّد يندرج ضمن هذا الصنف من «الرؤيا» وليس مجرّد خيالٍ أو هلوسة: «ماذا ترى؟» سأل ورقة محمّداً. وبعد أن قصّ عليه قصّته، ردّ عليه جازماً: «إنه الناموس»، أو «الناموس الأكبر» الذي كان يأتي موسى. بعبارة أخرى، إنه جبرائيل، «موفد الله». وفي هذا الجواب تأكيدٌ لمحمّد بأن ما يحصل له هو نفس ما حصل لمن سبقه من الأنبياء والرسل؛ إنه على نفس خطّ موسى وعيسى. وفي ذلك طمأنةٌ لمحمّد وتشجيعٌ له وإيحاءٌ بأنّ له «رسالةً» عليه أن يتحمل عبئها في علاقته بأمّته: «إنّك لنبيّ هذه الأمّة». لقد جاء وقت نبوّة العرب مثلما جاءت نبوّات سابقة لغيرهم من الأقوام. وكل هذا يؤكّد من جديد فرضيّة أن خديجة كانت تحدّثه بما يجول في فكر محمّد من خواطر حول الحالة في مكة، وما يعتريه من تأمّلات، علاوة على احتمال صلة محمّد به ونقاشه معه. ناهيك بأنّ كل الروايات تفيد اطمئنان محمّد لكلام ورقة الذي دعاه إلى الثبات والانتباه إلى ما يرى.

لنواصل.

ولا تقف خديجة عند هذا الحدّ، بل تنادي محمّداً وتقول له: «أيّ ابن عمّ، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبرائيل عليه السلام كما كان يأتيه، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لخديجة: يا خديجة هذا جبرائيل قد جاءني، فقالت: نعم، فقم يا ابن عمّ، فاجلس على فخذي اليسرى، فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحوّل فاقعد على فخذي اليمنى، فتحوّل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فجلس عليها، فقالت: فهل تراه؟ قال: نعم، قالت:

فتحوّل فاجلس في حجري، فتحوّل فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، فتحسّرت، فألقت خمارها ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالس في حجرها ثمّ قالت: هل تراه؟ قال: لا، فقالت: يا ابن عمّ، اثبت وأبشر فوالله إنّه لملك وما هو بشيطان»[1].

فعلت خديجة ذلك لأنّ محمّداً ما زال يعتقد أنّه واهم وأنّه مجنون. وهي كعادتها تتصرّف، في علاقة به، تصرّف الأمّ من ناحية، والحكيمة من ناحية ثانية: تضعه على فخذها الأيسر فالأيمن ففي حجرها كما تضع الأمّ طفلها. ومحمّد يطاوعها كما يطاوع الطفل أمّه وهي تسأله لتقول له في النهاية: «اثبت، إنّ من أتاك هو الملك جبرائيل وليس الشيطان». وبالتالي فهي عالمة بمن هو جبرائيل ومن هو الشيطان وبسلوكهما في المخيال الرّوحي الشعبي: واحد رمزٌ للطهارة والحياء، والآخر لـ«الرّجس والفساد». وتعلن له أنّها تصدّقه وتناديه: «يا رسول الله». ويصوغ محمّد الشهادة التي ستظلّ إلى يومنا هذا مدخل كل مؤمن إلى الإسلام: «أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله». ولا بدّ لنا من أن نُلاحظ عرضاً أنّ ما جاء في الرواية المذكورة أعلاه يفيدنا أنّ خديجة كانت في بيتها تلبس الخمار. وفي ذلك إشارة إلى بعض عادات نساء قريش، بل ليس كل نساء قريش لأنّ السفور كان شائعاً.

وتتواصل ظنون محمّد وإرهاقه إلى حد أنّه فكر في أنّ يلقي بنفسه من أعلى الجبل. وتتواصل تطمينات خديجة له بأنّه ليس مجنوناً ولا واهماً ولا شاعراً، ولكن بعثه الله «بشيراً ونذيراً». لذلك سيحميه وينصره حتى يؤدي رسالته... وتأتي بعد ذلك الآيات متطابقة مع ما جاء على

---

(١) الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠٣.

لسان خديجة فقد توجّه الرّب إلى محمّد قائلاً: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]. وفي مقام آخر يتوجّه الرّب إلى قريش مكذّباً: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[2].

عاشت خديجة إذن فترة المخاض الأولى للإسلام، من بوادر هذا المخاض (الرّؤيا الصادقة)، إلى الفترة الحرجة منه (جبرائيل يغتّ صاحبه)، إلى ظهور المولود الجديد: «أنت، رسول الله». ولم يكن دورها في هذا المخاض سلبياً بل كانت قريبة منه، ترعاه، حريصة على ظهور المولود وعلى سلامته وسلامة حامله. كان محمّد يرتاب، يتردّد، يخشى على نفسه، يحبط، فينهار ويفكر جديّاً في الموت. وفي المقابل، كانت خديجة واثقة، متيقنة، حافزة، حاضّة على الثبات، حاضنة وحكيمة.

خديجة التاجرة المتفتّحة، حسب أغلب الظنّ، على مشاكل مجتمعها، ليس من المستبعد أنّها كانت ترى في ما حصل تحقيقاً لغاية تتجاوز شخصها كزوجة لمحمّد لتستجيب لحاجة مجتمعها.

---

(١) سورة القلم ٦٨/ ٢ ـ ٤.

(٢) سورة التكوير ٨١/ ٢٢ ـ ٢٥.

- IV -

خديجة من التّصديق إلى نهاية سرّيّة الدّعوة

صدقت خديجة إذن محمّداً وكانت أوّل من آمن به. وتشير كلّ الرّوايات إلى أنّ محمّداً كان يُعلمها بما يجدّ ويناقشها فيه. فلم يكن هو باثّاً فحسب ولا هي متلقيّة فحسب. وهو ما جعل منها طبقاً لكلّ الرّوايات «وزيرة صدق»[1].

وستظلّ دعوة محمّد على مدى الثلاث سنوات التي ستلي البعث سرّية[2]. كانت الاتصالات لا تتمّ إلاّ بمن يُستثاق بهم لكسبهم للدين الجديد. كما كانت تعاليم هذا الدّين تُمرّر للأتباع الجُدد في نطاق لقاءات واجتماعات يُتَكَتّم عليها شديد التكتّم. ولم يكن المسلمون الأوائل يجهرون بمعتقدهم وصلواتهم وتحرّكاتهم: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلّوا ذهبوا إلى الشّعاب، فاستَخْفوا من قومهم...»[3].

لكن ذلك لا يعني أنّ قريشاً لم تكن على علم بالدين الجديد. وإنّما لم تأخذه مأخذ الجدّ في البداية، ولم ترَ فيه خطراً على مصالحها.

---

(١) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ص ١٦٢، ١٦٣، ٤١٦؛ الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧؛ ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص١٧.

(٢) انظر الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٣٤٦؛ البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص١١٦.

(٣) الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

ومع ذلك، فإنّ محمّداً وأتباعه كانوا يتكتّمون لقلّة عددهم ولخوفهم من الاضطهاد في مرحلة مبكّرة جدّاً من البعث. هذه الفترة بوجه خاصّ، والفترة المكيّة بوجه عام، لا نجد عنها أخباراً كثيرة، وبالتالي فإنّنا لا نجد ما يشفي الغليل عن خديجة ودورها في تلك الفترة الحرجة من ظهور الإسلام. فكلّ ما نعثر عليه لا يتجاوز الإشارات والأخبار القليلة التي نفهم منها أنّ خديجة ستستمرّ في دعم الرّسول وتثبيت خطاه من ناحية، وفي العمل على كسب المؤيّدين للإسلام في النّطاق العائلي الضيّق من ناحية أخرى.

إنّ اضطراب محمّد لن يتوقف عند فترة المخاض الأولى (نزول سورتي العلق والمدّثر. .)، بل سيستمرّ خاصّة في فترة انقطاع الوحي بعد نزول سورة القلم. كان وقتها قد التحق بالإسلام بعض الوجوه الهامّة من بينها أبو بكر بن قحافة «نسّابة قريش والعارف بأيامها والحاضر بمجالسها»[1]. ومع ذلك، فإنّ كتب التاريخ تؤكّد على استمرار دور خديجة في النقاش مع محمّد ودعمه معنوياً.

مرّ محمّد بعد انقطاع الوحي بأزمة حادّة وصل به اليأس خلالها إلى التفكير في الموت. فكان جبرائيل، من جهة، يظهر ـ حسب الرّوايات ـ في اللحظة الحرجة ليصدّه هاتفاً: «يا محمّد إنّك نبيّ الله»[2]، وكانت خديجة، من الجهة الأخرى، تقنعه بأنّ الأمر ظرفي وأنّ الله لن يتخلى عنه، وتدعمه بكلّ ثقلها المعنوي. تشير الروايات إلى أنّها كانت في ذلك الوقت حاملاً بابنها عبد الله، وهو أمر غير جائز في الحقيقة إذا كانت

(١) الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٣١٧.
(٢) الطّبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠٥ (رواية الزّهري).

تزوّجت محمّداً في سنّ الأربعين كما سبق أن ذكرنا، إذ إنّ خديجة أثناء هذا الحمل ستكون قد تجاوزت الخامسة والخمسين، مما يبعث على الاعتقاد بأنها، إذا صحّ حملها، كانت دون هذا السن. وتذكر الروايات أنه بقدر ما سيدخل ميلاد عبد الله (وهو الطاهر والطيب أيضاً حسب البلاذري) البهجة على أبويه، ستُصيبهما وفاته المبكرة. فقد كان محمد يريد من يعقبه من ذريته، وهو ما يُفسِّر ألمه إثر فقدان ابنه الثاني. لكن ما سيؤلمه أكثر هو شماتة أهل قريش الذين سيعيّره بعضهم بـ«الأبتر». جاء في كتاب البلاذري: «وولدت خديجة للرسول صلّى الله عليه وسلّم أيضاً عبد الله، وهو الطاهر والطيب. وسُمّي بهذين الاسمين جميعاً، لأنه ولد بعد المبعث في الإسلام وتوفي بمكة، فقال العاص بن وائل: محمد أبتر، لا يعيش له ولد ذكر». ويضيف البلاذري: «فأنزل الله عز وجل: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾»[1]. وهكذا تكاثرت هموم محمد وتداخل فيها العام والخاص، ما له صلة بالرسالة وما له صلة بحياته الأسرية.

وفي اعتقادنا، لا يُمكن عزل هذه اللحظات الحرجة التي مرّ بها محمّد بعد المخاض الأوّل عمّا لاقاه من ردود فعل من قبل قومه لا ندري إنْ كان يتوقعها أم لا. فإلى بعض التهديدات التي وُجّهت إليه وإلى أصحابه[2]، قوبل محمّد، ولا سيما من قبل خصومه، بالاستهزاء، واتُّهم بالجنون، وعُيِّر باليتم («يتيم أبي طالب»). وهكذا بدأت الأمور بداية صعبة للغاية. فقد يكون محمّدٌ عاش مرّة أخرى تردّداً، وهو أمر طبيعي. إذ ما كان بإمكانه أن يتكهّن بمستقبل ما حمل إلى مجتمعه من أفكار، كما

---

(١) انظر البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص٤٠٥.
(٢) انظر الطّبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٣١٨.

كان يصعب عليه إدراك الشّعاب التي ستشقها هذه الأفكار قبل أن تنفذ إلى قلوب الناس وعقولهم.

هنا يبرز من جديد دور خديجة. صحيح أنها ليست هي التي تباشر المهمّة المنوطة بمحمّد وما يترتّب عنها من قلق ومصاعب وإشكالات، ولكن رغم ذلك كان بالإمكان أن يتسرّب إليها الشكّ أو الإحباط. كما كان بإمكانها أن تتصرّف من زاوية مصلحتها الشخصيّة: الحفاظ على زوجها وحياتها العائليّة المستقرّة وتجارتها الرّابحة وعلاقتها بعشيرتها. وهو أمر ممكن في عقليّة التاجر العمليّة النّفعيّة (البرغماتية). لكنّها لم تنحُ هذا المنحى، بل اختارت الطريق الصّعبة. وفي اعتقادنا أنّ ذلك راجع، كما سبق أن قلنا، إلى قناعاتها الشخصيّة. فالمرأة التي تسند الآن محمّداً ليست بالأساس الزّوجة «التابعة» ولا «التاجرة» صاحبة الحسابات، وإنّما العقائديّة المقتنعة.

وموقف خديجة هذا سيتواصل طوال فترة السريّة، مبرزاً حرصها على نجاح العقيدة الجديدة.

الجانب الآخر خلال هذه الفترة يتعلق بالدّعوة. وفي هذا الشأن فالمعطيات شحيحة أيضاً. لكن المسلمين الأوائل، سواء تعلّق الأمر بخديجة.أو بغيرها، كانوا محكومين بصعوبة الظرف: سريّة الدّعوة من جهة، وضغوط القرشيين واضطهادهم من جهة ثانية. فلم يكن الذين التحقوا بالإسلام كُثُراً. وإلى ذلك فإنّ خديجة كانت محكومة بوضعها كامرأة: فلم تكن تحضر المجالس والنّوادي، علاوة على ما بلغته من سنّ وقتها وما يشغلها من عناية بمجموعة من الأطفال.

تذكر المصادر أنّ بنات الرسول الأربع آمنّ به منذ اللحظة الأولى

للبعث. قال البلاذري: «فلمّا أكرم الله نبيه بالرّسالة، آمنت به خديجة وبناته وصدّقنه»[1].

لقد كانت خديجة ذات سلطة معنويّة كبيرة في أسرتها، فهي عملياً العائِلَة لها، وقد كان محمّدٌ يأخذ بآرائها. لذلك ليس من الغريب أن تكون هي التي توجّهت إلى بناتها[2] لإعلامهنّ بما حدث لأبيهنّ ومطالبتهنّ بتصديقه. وفيما عدا بناتها، لا يوجد ذكرٌ بكونها استقطبت أخريات أو آخرين للإسلام في تلك الفترة الأولى. ورغم إشارة المصادر إلى اعتناق ولديها هالة وهند من زوجها أبي هالة التميمي وبنتها هند من زوجها عتيق المخزومي الإسلام وذكرهم ضمن الصحابة، فإنّنا لم نعثر على أخبار حول كيفيّة دخولهم الإسلام[3]. ومهما يكن من أمر، فما يجلب الانتباه أنّ كامل أفراد أسرة خديجة أسلموا. وفي المصادر أيضاً إشارةٌ إلى أنّ خديجة كانت تتابع حديث محمّد مع أبي بكر قبل إسلامه، فلمّا أسلم قالت من وراء الباب: «الحمد لله الذي هداك يابن أبي قحافة». وقد روى ذلك عبد الله بن مسعود[4].

هذه الفترة الأولى من الدّعوة التي لم تتّصل فيها خديجة إلاّ يبعض

(١) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص٣٩٧. لكنّه لا يمكننا تقديم قول البلاذري بخصوص إسلام بنات الرّسول على أنّهنّ أوّل من أسلم من النّساء بعد خديجة. إذ نجد رواية عند ابن الكلبي تفيد أنّ لبابة بنت الحارث، زوجة العبّاس بن عبد المطلب، عمّ الرّسول، كانت أوّل امرأة أسلمت بمكة بعد خديجة، وكان رّسول الله ﷺ يقيّل في بيتها. المصدر نفسه، ج١، ص١٩.

(٢) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص١٩٩.

(٣) انظر مثلاً ابن سعد، المصدر نفسه، ج١، ص٤٢٢.

(٤) انظر ترجمة أبي بكر الصديق في: ابن الأثير، أسد الغابة. ترجمة رقم ٣٠٦٤.

أفراد عائلتها لم تكن لتتميّز حسب المصادر بنشاط حثيث للدّعوة حتى من قبلِ المسلمين الآخرين. فمحمّد نفسه لم يدخل على يديه سوى الصبّي عليّ بن أبي طالب والمولى (الابن) زيد بن حارثة. فقد كان دوره في الأساس - وسيتواصل إلى فترة - عقائدياً. ناهيك بأنّه لمّا توجّهت إليه عمّاته اللاتي زرنه في البيت في آخر فترة سرّيّة الدعوة وسألنه عن حاله، أجابهنّ بأنّ الله طلب منه أن ينذر عشيرته، فكان ردّهنّ أن طلبن منه أن يتوجّه إلى أزواجهنّ: «وخرجن من عنده، وهنّ يقلن: إنّما نحن نساء»[1].

إنّ أبا بكر هو الذي سيكون له في البداية دورٌ تعبويٌّ على غاية من الأهميّة، إذ سيجلب خمسة من شباب قريش من ذوي الجاه ينتمون إلى خمس قبائل مختلفة وهم: عثمان بن عفان، الزّبير بن العوام (ابن أخي خديجة)، عبد الرّحمن بن عوف، سعد بن أبي وقّاص، وطلحة بن عبيد الله. ولا يمكن أن يكون ذلك عرضاً. فالأرجح أنّهم كانوا ينتمون إلى «الحلقة» نفسها، وأنّهم كانوا قد بلغوا درجة معيّنة من التفكير في نقد الحالة الدينيّة والروحيّة عند قريش، سهّلت عليهم قبول الدين الجديد.

---

(١) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص١١٨.

- ٧ -

خديجة والجهر بالدّعوة:

خديجة تجهر بإسلامها وتحمي محمّداً

بعد ثلاث سنوات من السريّة[1] يقرّر محمّد (بأمر من الله) الجهر بالدّعوة: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]، و﴿أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[3].

وكانت من العلامات المميّزة لهذا الجهر الخروج للصّلاة أمام الكعبة. وقد حضر هذه الصّلاة الأولى إلى جانب محمّد: خديجة وعليّ بن أبي طالب. تقول رواية ابن إسحاق بسند عفيف، أحد التجار الذين كانوا يتداولون على مكة وقد شاهد محمّداً ومن معه في صلاته: «فبينا أنا عند العبّاس بن عبد المطلب بمنى، فأتاه رجل مجتمع، فتوضّأ فأسبغ الوضوء، ثمّ قام يصلي، فخرجت امرأة فتوضّأت وقامت تصلّي، ثمّ خرج غلام قد راهق، فتوضّأ، ثمّ قام إلى جنبه يصلّي، فقلتُ: ويحك

(١) محلّ اتفاق جميع الرّواة. انظر على سبيل المثال: ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣؛ الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٣١٨.
(٢) سورة الحجر ١٥/ ٩٤.
(٣) سورة الشعراء ٢٦/ ٢١٤.

يا عبّاس! ما هذا؟ قال: هذا ابن أخي محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب. . .، وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة، قد تابعته على دينه. . .»[1].

وهكذا فإنّ خديجة التي برزت في المخاض الأوّل للإسلام بقوّة شخصيتها التي دفعت محمّداً إلى الثبات والاستمرار حتى النّصر على المشركين، تظهر من جديد ـ إذا صحّت هذه الرواية طبعاً[2] ـ على السّاحة العلنيّة هذه المرّة لتُسهم في إعطاء إشارة الانطلاق لمرحلة جديدة من الدّعوة الإسلاميّة.

فحضورها إلى جانب محمّد أمام الكعبة وأمام النّاس له أكثر من معنى: إنّ خديجة بنت خويلد الأسديّة صاحبة النّسب والمال تدعم محمّداً وإسلامه، وفي ذلك تحدٍّ لزعماء قريش المناوئين له ودعوةٌ لنساء قريش وبناتها كي يأخذن عنها المثال. فالدّين الجديد لا يعني الذكور

---

(١) الطّبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٣١٢.

(٢) من المعلوم أنّ الوضوء والصّلاة على شاكلتيهما المتعارف عليهما اليوم نزلا في المدينة. وهو ما دفع بالبعض إلى الشّك في صحّة هذه الرّواية خصوصاً فيما يتعلق بالوضوء. لكنّ العديد من الرّوايات تتحدّث عن وجود الوضوء والصّلاة أيضاً منذ الفترة المكية الأولى، دون تحديد لطريقة الوضوء. كما أنّ في القرآن ما يمكن أن نعتبره إشارات، منذ السّور الأولى، إلى ما هو «وضوء» (سورة المدّثر، الآيات السّبع الأولى)، ممّا جعل البعض يرجّح أنّ «الوضوء مكّي بالفرض مدني بالتلاوة». وهو أمر وارد. فقد يكون محمّد مارس الوضوء بشكل معيّن منذ الفترة الأولى للبعث، ولمّا اكتملت صورة الصّلاة نصّ عليهما القرآن. انظر حول الوضوء والصّلاة: ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥؛ والبلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ص ١١٦ ـ ١١٧؛ والموسوعة الإسلامية Monnot (G), «Salat», *EI.*, VIII, pp. 957 - 965.

فقط، وإنما يعني جميع الناس بقطع النظر عن جنسهم.

ونحن لا نعتقد في صحّة التأويلات التبسيطيّة التي قد ترى في ما فعلته خديجة اتباعاً لمشيئة زوجها. فالمعلوم من التاريخ أنّ علاقة خديجة بمحمّد لم تكن علاقة تابع بمتبوع، بل إنّ خديجة كانت ذات تأثير ملحوظ عليه. فلم يكن ليفعل أو يفرض عليها شيئاً لا ترضاه حتى إنّه طوال حضورها هي لم يقدم على الزواج عليها بثانية أو يتسرّى رغم أنّ ذلك كان شائعاً في المجتمع المكّي. وعلى هذا الأساس، يُمكن القول إنّ خروجها معه للصّلاة أمام الكعبة وأمام قريش كان موقفاً ينمّ عن جرأة ويُعبّر عن قوّة إرادة وتحدّ. ولا ننسَ أنّ دعم خديجة لمحمّد وللدين الجديد لم يقتصر على الجانب الأيديولوجي المعنوي وإنّما شمل أيضاً الجانب المادّي. فأموال خديجة كانت تحت تصرّف محمّد. وقد كان المال في تلك الفترة، كما في فترة الإعداد للدّعوة، يُنفق بشكل خاص في الأعمال الاجتماعيّة الخيريّة: إطعام المساكين، إعانة اليتامى.. إلخ[1].

وممّا يلفت الانتباه أنّ خروج خديجة إلى الصّلاة علناً وبالتالي إجهارها بإسلامها لم يجلب إليها سخط قريش حسب ما لدينا من معلومات تاريخيّة، ولسنا ندري أسباب ذلك بالتدقيق إذا صحّت الرواية التي اعتمدناها. فخديجة لم تُهاجم. كما أنّ محمّداً لم يُعيَّر بخروجها وبكونها عائِلَتَهُ أو بكونها أكبر منه سنّاً. فهل أنّ ذلك راجع إلى أخلاق قبليّة أم إلى خوف من ردود فعل قومها؟ ولا نعتقد أن يكون عدم تعرّض قريش لما فعلته من باب اللامبالاة أو الاستخفاف بها كامرأة. فقريش

(١) انظر أعلاه ص ٣٨، الحديث موضوع الهامش رقم (١).

كانت تعلم مكانة خديجة وتأثيرها على محمّد؛ كما أنّ المرأة رغم سيطرة الذكوريّة في المجتمع المكّي كان لها بعض الحضور ولم تكن مهمّشة بالكامل وخاصّة في الوسط الأرستقراطي. وليس أدلّ على ذلك من أنّ بعض النّساء برزن في المعسكر المقابل بعدائهنّ لمحمّد ومقاومتهنّ للإسلام. فزوجة أبي لهب، عمّ محمّد، أمّ جميل بنت حرب بن أميّة مثلاً، خصّها القرآن بالذكر لدورها النّشيط في مقاومة محمّد وفي التحرّش به عندما اشتدّت المواجهة بين الطرفين. فبعد نزول: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾[1]، يذكر البلاذري بناءً على رواية للواقدي أنّ أمّ جميل التقطت حجراً كبيراً وقصدت المسجد الحرام بحثاً عن محمّد، فلمّا لم تره في المسجد رغم وجوده هناك قالت لأبي بكر: «يا أبا بكر، أين صاحبك؟... بلغني أنّه هجاني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فمه»[2]. ثمّ هجته بشعر قائلة:

مُحَمَّدٌ قَلَيْنَا[3] وَدِينُهُ أَبَيْنَا[4]

ولم يقف تحرّش أمّ جميل بمحمّد عند هذا الحدّ، بل كانت تتحرّش به في سكناه أي في بيت خديجة المجاور لبيتها وبيت أبي لهب (وضع أشواك في طريق محمّد، إلقاء الفضلات في فناء البيت وأمامه). وكان هذا التحرّش في الحقيقة موجّهاً أيضاً ضدّ خديجة[5].

---

(١) راجع سورة المسد ١١١.
(٢) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص١٢٣.
(٣) قلينا: أي هجرنا وأبغضنا. لسان العرب، ج١١، ص ص ٢٩٣ ـ ٢٩٦.
(٤) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص١٢٢.
(٥) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٤١٦.

وذهب الأمر بأمّ جميل أن فرضت على ابنيها أن يطلقا بنتي محمّد وخديجة، ففعلا. وكانت رقيّة عند عتبة بن أبي لهب وأمّ كلثوم عند معتّب بن أبي لهب حسب ما ذكر البلاذري[1]. وتشير معظم الروايات إلى أنهما لم يدخلا بهما، بل «ما زالتا عند أبويهما، وكان أبو لهب وأم جميل خطباهما لابنيهما بعد زواج زينب أكبر بنات محمد وخديجة بأبي العاص بن الربيع، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد بن أسد، وكان من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة»[2]. وقد تعرّض أبو العاص أيضاً لضغوط قريش لكي يطلّق زينب ولكنه رفض. ومن الواضح أن الغرض من تطليق رقية وأم كلثوم ومحاولة تطليق زينب هو عزل محمد وعائلته وتلهيتهما بذلك الأمر: «ردّوا عليه بناته فاشغلوه بهن»[3]، هكذا قال خصوم محمد، ولكن رقيّة ستتزوج من عثمان بن عفان الذي دخل الإسلام وستفارق الحياة في أيام بدر. فما كان من محمد إلا أن بادر بتزويجه من أختها أم كلثوم. وقد ماتت هذه الأخيرة في العام التاسع من الهجرة، أي بعد وفاة أختها الكبيرة زينب بحوالى العام»[4].

بعد الجهر بالإسلام من قِبَلِ محمّد وخديجة وعليّ ثمّ من قِبَلِ بقية المؤمنين، ستدخل مقاومة قريش للدين الجديد مرحلة أخرى، إذ إنّها ستعي خطورة هذا الدين على مصالحها:

أولاً: على معتقداتها. جاء في رواية أوردها البلاذري بسند قالوا: «إنّ أبا لهب لقي هند بنت عتبة بن ربيعة، زوج أبي سفيان، فقال لها:

---

(١) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص١٢٣.
(٢) الطبري، تاريخ، ج٢، ص٤٦٧.
(٣) الطبري، المصدر نفسه،، ج ٢، ص٤٠.
(٤) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ٤٠١ ـ ٤٠٢.

لقد باينت محمّداً، يا ابنة عتبة، وأبيت ما جاء به، ونصرت اللات والعزى، وغضبت لهما»[1]

ثانياً: على ما تبوّئه إيّاها حراسة الكعبة من مكانة هامّة بين القبائل؛

ثالثاً: على تجارتها المرتبطة بالحجّ والحراسة؛

رابعاً: على السّلطة السّياسيّة لبعض زعامات القبائل.

أمام الإحساس بهذه المخاطر ستبدأ مواجهة قريش الجديّة لمحمّد وللمسلمين. فتكاثرت الاعتداءات عليه وعليهم، وأصبحت مسألة حماية محمّد والمسلمين مسألة أساسيّة.

وإذا كانت حماية أبي طالب لمحمّد حاسمة في كبح جماح المتربصّين به من جماعات قريش، فإنّ بعض الإشارات تفيدنا بأنّ عين خديجة كانت ساهرة أبداً عليه. فقد كانت شديدة الانتباه لما يمكن أن يُحاك ضدّ محمّد من مؤامرات. فكانت، وهي العارفة بأجواء قريش، متيقظة حيال كلّ ما يدور في المجالس (نوادي قريش) حول محمّد.

ذات مرّة قرّر نفرٌ من قريش بجوار الكعبة قتل محمّد وتعاهدوا على ذلك وأشهدوا آلهتهم، لكنّ فاطمة الطفلة (١٠ سنوات) التقطت الحديث فسارعت جرياً لتُعلم أمّها خديجة بالمؤامرة. محمّد كان لا يزال آنذاك بالمنزل، فلمّا خرج إلى الكعبة كان على علم بما ينتظره، فواجه أعداءه كاشفاً خسّتهم فنجا من اعتداء مدبّر[2]. وتشير أخبار أخرى إلى أنّ محمّداً كان يصلي عندما حضّ أبو جهل عقبة بن أبي معيط، أحد أعداء

---

(١) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ١٢٢.

(٢) المنتخب من السنّة النّبويّة، المجلّد الأوّل، القسم الثاني، الباب الثالث، ص ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

محمّد المغالين في عداوتهم ليلقي على ظهره وهو ساجد «سلاً جزور»[1]، وهو ما فعله. وتفيد الرّوايات أنّ نبأ هذا الاعتداء وصل بسرعة إلى خديجة فأرسلت إليه فاطمة لترفع السّلاً من على كتفي أبيها، علماً بأنّ عبد الله بن مسعود، الذي أسلم، كان حاضراً ولم يبادر بفعل ما فعلته فاطمة خشية من الحاضرين[2].

إنّ هذه الإشارات على قلتها، إضافةً إلى ما يروى عن اهتمام خديجة بكلّ ما كان يجري للمسلمين الأوائل، تُبيّن متابعتها عن كثب لسير أمور الدّعوة وعنايتها بصاحب هذه الدّعوة، محمّد.

وقد شهدت خديجة مع محمّد هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة في العام الخامس بعد البعث وبقيت معه في مكة[3]. وتشير المصادر إلى أنّ اختيار محمّد «الحبشة» كمهجر للمسلمين روعي فيه توفُّر الأمن والأمان لهم مقارنةً بأماكن أخرى، فقد قال لهم وهو يحثهم على الخروج: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتّى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه»[4]. فمحمّد كان على دراية بالوضع العقائدي السياسي في الحبشة التي كان العرب على صلة تجاريّة بها والتي كانت المسيحيّة عقيدتها الرسميّة.

---

(١) سلاً جزور أي أمعاء جمل.

(٢) انظر عن هذا الخبر: ابن هشام، المصدر نفسه؛ البخاري، حديث رقم ٣٤٢٠، الصحيح، ج٦، ص١٧٨.

(٣) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ـ ٢٠١؛ الطّبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٣٣٠.

(٤) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٣٢١ ـ ٣٢٢؛ الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

ولا تعطينا الروايات معلومات دقيقة يُمكن الاستناد إليها بشكل قاطع حول أسماء الذين شاركوا في الهجرة إلى الحبشة. فمنها ما يذكر رقيّة بنت محمّد وزوجها عثمان بن عفّان ضمن المهاجرين، ومنها ما يذكر أنّ الزبير بن العوّام ابن أخي خديجة وأفراداً آخرين من بني أسد كانوا من ضمنهم أيضاً. كما تشير المصادر إلى آخرين من بين قوم خديجة هاجروا إلى الحبشة في المرّة الثانية[١].

ويشهد الوضع في مكة بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة شيئاً من الانفراج، ذلك أنّ زعماء قريش بعد أن يئسوا من إجهاض الدين الجديد سيسعون إلى احتوائه، مرغّبين محمّداً في السّيادة والملك والمال وفي «العلاج» إن كان به «مسّ»! كلّفهم ذلك ما كلفهم من المال. وذهبوا في مناسبة أخرى إلى حدّ وعده بأن «يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكّة ويزوّجوه ما أراد من النّساء، ويطئوا عقبه»[٢]، مقابل أن يعبد آلهتهم اللات والعزّى سنة ويعبدوا إلهه سنة.

إنّ إغراء محمّد في هذا العرض بتزويجه بمن أراد علامة على تفشّي تعدّد الزّوجات في ذلك العصر[٣] وعلاقته بقيمة النّسب والشّرف: مصاهرة أوسط النّاس نسباً وإكثار الولد (علامة الشرف). وقد يكون في ذلك تلميح لمحمّد بأنّه بإمكانه أن يتدارك ما فاته من إنجاب الولد وقد

---

(١) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ص ١٩٨ وما بعدها.

(٢) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص٢٩٣؛ الطّبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٣٣٧.

(٣) من المعلوم أنّ تعدّد الزّوجات كان ظاهرة شائعة قبل الإسلام: «إنّ قريشاً كان الرّجل منهم يتزوّج العشر من النّساء والأكثر والأقلّ»، ذكره الطّبري في تفسيره، ج٤، ص١٥٦.

بلغت خديجة ما بلغت من السنّ. لكنّ محمّداً لم يبالِ إطلاقاً بهذا العرض الذي يمسّ خديجة مباشرةً وينال من مصداقيته كـ«نبيّ».

في هذا الإطار نزلت الآية: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾[1]. ويضيف الطبري إليها في تاريخه: «تلك الغرانيق العلا، وإنّ شفاعتهنّ لتُرتجى»، ذاكراً أنّ هذه الجملة الأخيرة أوحى بها الشيطان وقد استبشر بها وثنيو قريش قبل أن تُنسخ ويُحسم معهم نهائياً في سورة الكافرون[2]. ومن ثمّ ستبدأ مرحلة جديدة شاقة في حياة المسلمين. فبعد فترة تميّزت بتعدّد المكائد والدّسائس الموجّهة ضدّهم، قرّرت قريش فرض الحصار على بني هاشم وبني المطّلب الذين وفروا لمحمّد الحماية.

في نهاية العام السّادس وبداية العام السّابع من بدء الدعوة، قرّرت جميع قبائل قريش تحت ضغط أكثرها نفوذاً مقاطعة بني هاشم وبني المطلب بمسلميهم ووثنييهم، ودوّنوا ذلك في صحيفة عُلّقت بالكعبة. فبعد البسملة «باسمك اللهم فاغفر» وهي العبارة الأصليّة الوحيدة التي وصلتنا من نصّ الصحيفة، أعلنت القبائل إجماعها على «أن لا يناكحوا "بني هاشم وبني المطلب ابنَيْ عبد مناف"، ولا يبايعوهم، ولا يخالطوهم في شيء، ولا يكلموهم»[3].

فما كان من بني هاشم وبني المطلب، وثنيين ومسلمين، إلاّ أن غادروا منازلهم إلى الشّعاب، الكائنة شرقيّ مكة، ليعيشوا في الجبال

---

(١) سورة النّجم ٥٣/ ١٩ ـ ٢٠.
(٢) الطّبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٣٣٨ ـ ٣٤٠.
(٣) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٤؛ الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

القاحلة تدفعهم الحميّة القبليّة[1].

وقد كانت خديجة من بين المغادرين إلى الشّعاب. وتفيدنا الروايات، على ندرتها، بما جرى خلال هذا الحصار، واضطلاعها بدور شيخة المسلمين في التخفيف من حدّته. فقد استغلت مكانتها لدى قومها لتوفير المؤونة للمحاصرين. ففي إحدى الرّوايات، تتوجّه خديجة إلى ابن ابن عمها زمعة بن الأسود بن المطّلب الأسديّ لتشكوه أبا جهل الذي كان يحاول منع وصول أي بضاعة إلى المحاصرين، فيتحرّك زمعة وينهى أبا جهل عن فعله فيمسك[2]. وفي الرّواية ذاتها أنّ ابن أخيها حكيم بن حزام بن خويلد بعث إليها ناقة عليها دقيق.

وفي حقيقة الأمر، فإذا كان من الواضح أنّ خديجة لم تبخلْ بمالها على المسلمين، فإنّنا لا نعثر على معلومات حول مصير تجارتها منذ أن صعبت ظروف المسلمين. هل توقفت أم استمرّت؟ وإذا ما استمرّت، ففي أيّ ظروف؟ بل إنّ المرجّح لدينا، في غياب المعلومات، أنّ تلك التجارة توقفت. فخديجة التاجرة لم تكن لها قوافلها الخاصّة بل كانت تُرسل وكلاءها ضمن قوافل قريش إلى الشام. ونستبعد في ظلّ سيطرة كبار وثنيي قريش وأثريائها (أمثال: أبو سفيان بن حرب، صفوان بن أميّة، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. . .)[3] على التجارة المكيّة أن لا تؤذى خديجة في تجارتها. وقد تكون في خشية محمّد من نفاد مال خديجة في الحديث الذي أوردناه

(١) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٤.
(٢) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٥.
(٣) أخبار هؤلاء التجّار متفرّقة في تاريخ الطبري، ج٢. انظر كذلك ابن حجر، الإصابة، ج٢، ص١٨١؛ والاستيعاب، ج٤، ص٨٦.

سابقاً علامة على توقف هذه التجارة.

استمرّ الحصار شديداً إلى السّنة العاشرة من مبعث محمّد. وعرف المحاصرون في ذلك الوقت الجوع كما عرفوا الموت[١]. ومع ذلك فإنّهم لم يذعنوا لقريش ولم يخذلوا محمّداً. إنّ استمرار الحصار وما ألحقه من جهد وضرر ببني هاشم وبني المطّلب أثار شيئاً فشيئاً الاستياء لدى بعض من لهم صلة قرابة ببني المطّلب من جهة الأمّ ولدى البعض من بني أسد أمثال: أبو البختري العاص بن هاشم بن الحارث الأسدي، وهو ابن ابن عم خديجة أيضاً، وزمعة بن الأسود. وكان جميع هؤلاء، وهم خمسة، على خلاف مع محمّد ودينه لكنّهم لم يغالوا في عدائهم بل كانوا معترضين على أوجه المغالاة التي كان يبديها بعض زعماء قريش. بشكل عام لم يرتضوا تجويع المحاصرين. وقبل أن يقرّروا مهاجمة الصحيفة سبق لبعضهم أن خالف عمليّاً أحكامها بأن أرسل أو توسّط في إرسال المؤونة إلى المحاصرين. ويعود إليهم الفضل في أنهم قاموا في المسجد الحرام وجاهروا في وجه أبي جهل بنقض الصحيفة وطالبوا بإلغائها. وهو ما حصل بعد أن ذهب في ظنّ أبي جهل بأنّ اتفاقاً بين القبائل حصل ضدّ الصحيفة وأنّه وقبيلته سيُعزلان. وتشير الرّوايات إلى أنّ الأسديين المذكورين سيصحبان الثلاثة الآخرين من زملائهم مسلحين إلى الشّعاب وسيعودون ببني هاشم وبني المطلب إلى مكة[٢].

ولن تعيش خديجة بعد هذه العودة طويلاً. سيموت أبو طالب أوّلاً

---

(١) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٤.

(٢) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦؛ الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٣٤١ ـ ٣٤٢.

في أوّل ذي القعدة (أو في النصف من شوال حسب رواية الزهري نفسها) سنة عشرٍ من المبعث ثمّ ستلحق به خديجة بعد مدّة وجيزة في السّنة عينها. وهذه المدة هي شهر وخمسة بالنسبة إلى البعض، وخمس وخمسون ليلة بالنسبة للبعض الآخر، بل ثمة من يقول إنها ثلاثة أيام فقط. وتذكر أغلب الروايات أن خديجة توفيت وهي في الخامسة والستين من العمر. وبما أننا نشكك في كونها تزوجت وهي في الأربعين، فالأرجح أنها توفيت في سن دون ما ذُكر بعشر سنوات أو أكثر.

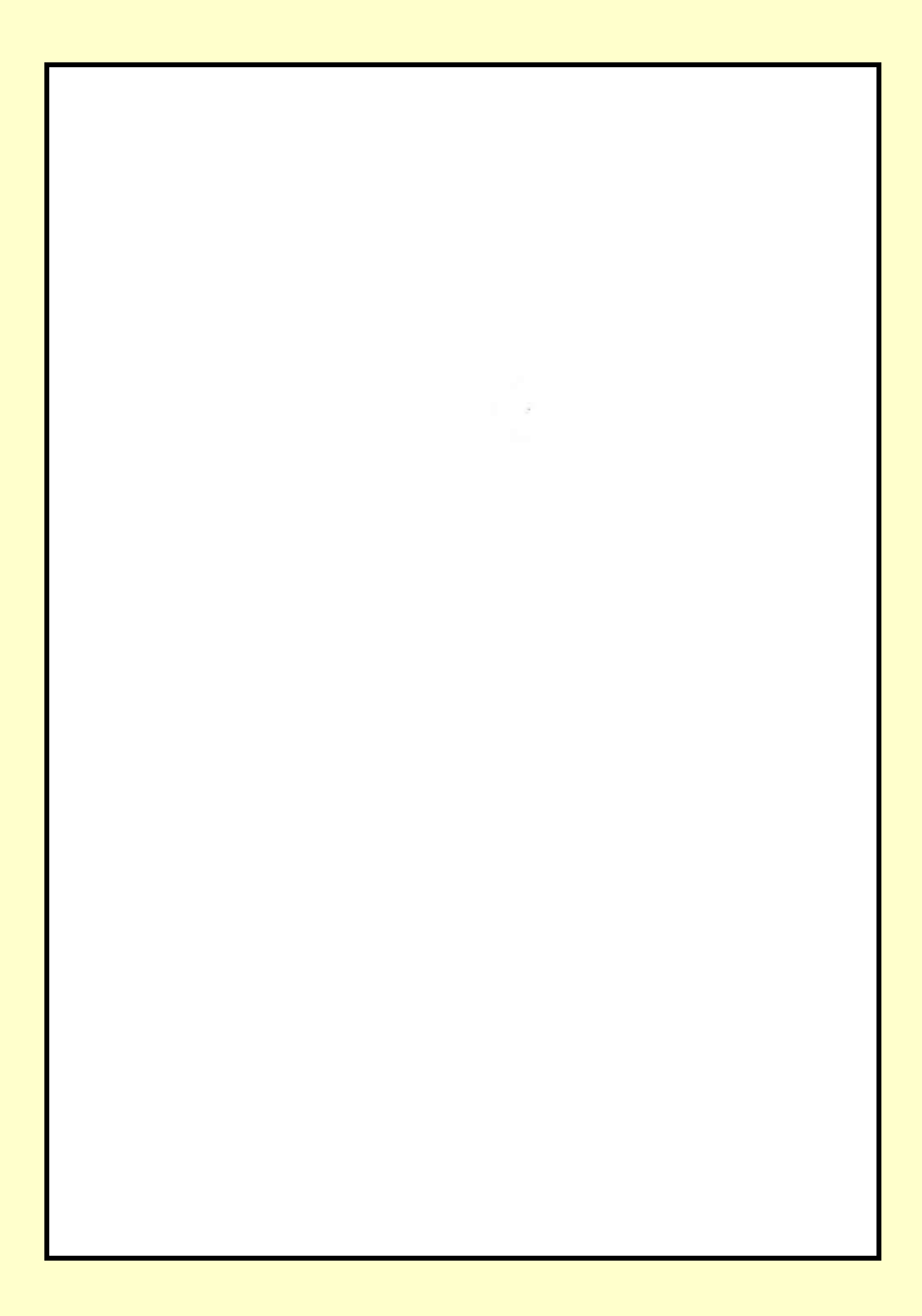
وقد دُفنت خديجة، حسب ما أورده البلاذري بسند لحكيم بن حزام ابن أخي خديجة، في الحجُون قرب مكة. يقول حكيم: «أخرجناها حتى دفنّاها بالحجون، ونزل النبي ﷺ في قبرها، وكانت وفاتها لعشر خلون من شهر رمضان سنة عشر، وهي ابنة خمس وستين سنة»[1]. ومن الملاحظ أن صلاة الجنازة لم تكن قد سُنّت بعد في الإسلام وأن محمداً أدّاها إكراماً لمقام خديجة. وسوف نجد ذكراً للحجُون حيث دُفنت خديجة بمناسبة فتح مكة في العام الثامن للهجرة. فمحمد سيؤمِّر الزبير بن العوام، ابن أخي خديجة، على خيل المهاجرين والأنصار المتجهين إلى مكة بقصد فتحها ويأمره أن يغرز رايته بأعلى مكة في الحجُون، «مضيفاً: لا تبرح حيث أمرتك أن تغرز رايتي حتى آتيك»[2].. ولسنا نرى ما سبب تعيين محمد مكان قيادته العليا بالحَجون، هل لأنه موقع استراتيجي، يُشرف على مكة، وهو الأرجح، أم تبرّكاً بخديجة، وهو جائز، أم للأمرين معاً؟

---

(1) البلاذري، المصدر نفسه، ج1، ص ص 405 ـ 406؛ الطّبري، المصدر نفسه، ج2، ص 343؛ ابن هشام، المصدر نفسه، ج2، ص75.
(2) الطبري، المصدر نفسه، ج3، ص ص 55 ـ 56.

الفصل الثالث

ظلال خديجة على حياة محمد بعد موتها



إنّ موت خديجة كان بمثابة النّكبة على محمّد، خاصّةً وأنّه اقترن بموت أبي طالب، فوصفت السنة التي ماتا فيها بسنة «الحزن». وممّا جاء في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق قوله: «ثمّ إنّ خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رّسول الله صلّى الله عليه وسلّم المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزيرة صدق على الإسلام، يشكو إليها، وبهلك عمّه أبي طالب، وكان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين»[1].

كانت خديجة تدعم محمّداً من النّاحية المعنويّة حتى يثبت ويستمرّ في الدّعوة. كما كانت تشكل له سنداً ماديّاً بمالها وتجارتها. وكان زواجه منها حافزاً لقومها كي يساندوه في بعض الشّدائد. فقد محمّدٌ كلّ ذلك بموت خديجة. وبموت أبي طالب الذي كان يوفّر له الحماية أصبح شبه أعزل في مواجهة خصومه من قريش الذين أصبحوا يرونه في موقع ضعف، فعادوا إلى التحرّش به والتضييق والاعتداء عليه. فلم يعد يرى بُدّاً من الخروج من مكة. فكانت في نهاية الأمر الهجرة إلى المدينة.

عرف الإسلام في المدينة نقلةً نوعيّةً إذ إنّه سيتحوّل إلى «دين دولة»، أي أنّ السلطة السّياسيّة والعلاقات الاجتماعيّة والقيم والمفاهيم السّائدة والتشريعات ستُستلهم منه. ومن هذا المنطلق ستتكاثر السور والآيات التي تعنى بتنظيم المجتمع. وبطبيعة الحال، فإنّ محمّداً لن

(١) ابن هشام، المصدر نفسه، ج١، ص ٤١٦.

يكون النبيّ والرّسول فقط ولكنّه سيصبح رئيس الدّولة أيضاً. ومن المدينة ستأخذ الدّعوة بُعداً جديداً. ستفتح مكّة ومن ثم سيمتدّ الإسلام إلى عموم الجزيرة العربيّة.

ليس موضوعنا الخوض في هذه المسألة لكن ما نريد الوقوف عليه هو الجوانب ذات الصّلة بخديجة في حياة محمّد والمسلمين بعد موتها. وفي هذا الصّدد، فإنّ ما يثير الانتباه هو تعدّد زوجات محمّد بعد هذه الوفاة. فقد عاش حسب الروايات طوال خمس وعشرين سنة معها دون أن يتزوّج عليها أو يتسرّى، في حين أنّه تزوّج من إحدى عشرة امرأة في الثلاث عشرة سنة التي تلت وفاتها، بل إنّه عاش مع تسع منهنّ في الوقت نفسه[1].

ومن البديهي أن يتساءل الباحث عن هذا التحوّل الكبير في حياة محمّد الشخصيّة. إنّ كُتُب التاريخ نفسها تفنّد بعض الآراء غير الموضوعيّة التي تبرّر تعدّد زيجات محمّد بأسباب سياسيّة، وتنأى بها عن بُعدها الاجتماعي والشّخصي. وإن كان هناك ما يُمكن أن يسند هذا التبرير بالنّسبة إلى بعض النّساء (عائشة بنت أبي بكر، حفصة بنت عمر، أم حبيبة بنت أبي سفيان...)، فإنّه لا ينطبق على نساء أُخريات كان الدافع إلى الارتباط بهنّ جنسيّاً (زينب بنت جحش، أمّ سلمة، صفيّة بنت

(١) هنّ: سودة بنت زمعة وعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطّاب وزينب بنت خزيمة وأمّ سلمة وهند بنت أبي أميّة وزينب بنت جحش وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان وجويريّة واسمها برّة بنت الحارث وصفيّة بنت حيّ (ورد اسمها صافية بنت هويا في تفسير الطبري، ج٢٢، ص٤٧) وميمونة بنت الحارث. انظر: البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٣٩٦، ٤٤٨؛ ابن سعد، المصدر نفسه، ترجمات أزواج النبي الواردة في ج٨.

حيّ. . .). وحتى حجّة الأسباب السّياسيّة، الموضوعيّة، فلا يمكن أن تُفسَّر كلّ شيء باعتبار أنّ هنالك أكثر من دافع «موضوعي» بالنسبة إلى محمّد في حياة خديجة كان يُمكن أن يكون تبريراً لزيجات أخرى، والحال أنّ تعدّد الزّوجات كان شائعاً:

أوّلاً: الولد الذي كان في «الجاهليّة» من علامات الشّرف، وبالتالي دافعاً لتعدّد الزّوجات.

ثانياً: السنّ إذ كانت خديجة تكبره سنّاً، وقد شاخت حسب الرّوايات، وهو في أوج فحولته.

ثالثاً: الدّعوة الإسلاميّة في بدايتها كانت في حاجة لتثبيتها إلى مصاهرات من بين المسلمين على الأقلّ، إذا أردنا أن نأخذ بحجّة «دعم الإسلام» لتبرير زيجات محمّد في المدينة.

في اعتقادنا أن خديجة بما كان لديها من نفوذ معنوي ومادي على محمد كانت هي من جعله يمتنع عن التفكير بالتزوج عليها. فكما سبق أن بيّنا، كانت خديجة بالنسبة إلى محمد اليتيم والفقير الزوجة ـ الأم من ناحية، والعَائِلَة من ناحية ثانية [﴿وَوَجَدكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[1]]، وصاحبة الحكمة في الفترات الحرجة من ناحية ثالثة. لقد كانت تهيمن عليه بشخصها، لذلك كان يصعب على محمد، في مثل هذه الحالة، أن يفكّر في غيرها، وكان من الصعب أن تقبل هي بضرة أو بضرائر. إن زواجها من محمد بالذات كان فيه ضمان لكي يكون زواجاً أُحادياً. وإلى ذلك، فإن ظروف محمد بعد البعث وطوال المرحلة التي عاشتها معه خديجة كانت على غاية من الصعوبة. كان فيها محمد محل اضطهاد من قريش،

---

(١) سوة الضحى ٨/٩٣.

وبعبارة أخرى لم يكن له من القوة والسلطة ما يخوله، على سبيل المثال، تجاوز سلطة خديجة لسبب من الأسباب والتزوج أو التسرّي عليها.

بعد موت خديجة سيتزوج محمد في البداية زواجاً واحداً من امرأة متقدمة إلى حد ما في السّن حسب الروايات وهي سودة بنت زمعة بن قيس، من بني عامر بن لؤي. كان ذلك قبل الهجرة بمدة قصيرة حتى إنه دخل بها في المدينة[1]. لكن هذا الزواج سيتبع بزيجات عديدة ومختلفة. ولا غرو في أن ما حوّل حياة محمد الشخصية يكمن أولاً في موت خديجة، أي في زوال عائق معنوي كبير من حياته هذه كان يصدّه ويثنيه؛ وثانياً في ما أصبح له من نفوذ وقوة في المدينة بوصفه نبياً وزعيماً سياسياً وقائداً عسكرياً له نصيب من الغنائم، ومنها النساء مثل: صفية بنت حي اليهودية[2] وجويرية (برة بنت الحارث)[3]. . . لقد عاد محمد إلى العيش كما يعيش عادةً من هم ذوو نفوذ وسلطان، يعددون الزوجات ويتسرّون، وإنْ كان ذلك في إطار عقائدي وأخلاقي جديد، لم يقضِ على كل العادات والتقاليد الاجتماعية القديمة ولكنه حافظ على البعض منها مع تقنينها والتخفيف من حدّتها أحياناً. كما أنه نزع إلى العيش على غرار من سبقه من الأنبياء حسب ما جاء في القرآن: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الذين خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾[4]. ويشير القرطبي تفسيراً لهذه الآية إلى «أنّ الله أراد أن

---

(1) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص٤٠٧.

(2) هي امرأة يهودية أسيرة تزوجها الرسول بعد فتح مدينة خيبر في السنة السابعة للهجرة: البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٤.

(3) أسرت جويرية يوم المريسيع (غزوة بني المصلق) في سنة ٦ هـ: الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٦١٠.

(4) سورة الأحزاب ٣٨/٣٣.

يُعلم الذين ينتقدون محمّداً على بعض زيجاته أنّ هذا ونحوه هو السّنن الأقدم في الأنبياء أن ينالوا ما أحلّه لهم. أي سنّ لمحمّد (ﷺ) التوسعة عليه في النكاح بسنّة الأنبياء الماضية كداود وسليمان»[1].

إنّ الأطروحات الإسلامويّة التي تحاول أن توجد تبريرات «موضوعيّة» لزيجات محمّد المتعدّدة، تسقط في مواقف لاتاريخيّة وتخرج بمحمّد من كينونته الاجتماعيّة ظنّاً منها أنّ في ذلك «صيانة» لنبوّته، فيصبح بذلك السّلوك الاجتماعي لمحمّد، الذي يتنزّل في فترة تاريخيّة محدّدة، قوالب قدسيّة و«رموزاً» لا صلة لها بسلوك البشر العاديين، بل «استثناء إلهيّاً».

ونحن نعتقد أنّ هذا الأسلوب يسهّل مهمّة «الخصوم الذّاتيين» للعرب والمسلمين ويقف حاجزاً أمام تطوّر الفكر الدّيني نفسه الذي يتحوّل إلى فكرٍ مُسقّط ومتحجّر، غير خاضع للتطوّر التاريخي.

أمّا أطروحات بعض المستشرقين التي تريد أن توجد في زيجات محمّد استجابةً لعقد نفسيّة[2]، فإنّها لا تختلف في شيء عن الأطروحات سابقة الذكر من زاويّة عدم إلمامها بالواقع الاجتماعي الذي عاش فيه محمّد بدون مكيّفات ميتافيزيقيّة وقدسيّة. فلم تأخذ بعين الاعتبار ما كان فيه من تقاليد وعادات بما فيها الزواج ببنات صغيرات السنّ.

وعلى صعيد آخر، ينبغي الإقرار بأنّ زواج محمّد الأُحادي من خديجة كان ضمن له استقراراً كبيراً على المستوى العائلي والنفسي

(١) القرطبي، المصدر نفسه، ج١٤، ص١٩٥.

(٢) سيطرت هذه النظرة المتحاملة المتخلفة لدى العديد من «كتاب» و«مفكري» بدايات العصر الحديث وهم من مسيحيي أوروبا.

ساعده على عدم تشتيت طاقته وتركيزها على نشاطه الروحي والديني. بينما حياته متعدّدة الزّوجات نشأت فيها مشاكل وقضايا جديدة.

إنّ فارق السنّ بين محمّد وزوجاته علاوة على كثرتهنّ سيكون سبباً لغيرة عميقة: غيرة محمّد على نسائه وغيرة نساء محمّد من بعضهنّ البعض ومن كلّ امرأة تقربه. ومن ثم ستتكاثر منازعات الرّسول الزّوجيّة. ستُطالبه زوجاته بالتسوية بينهنّ وبين عائشة في المعاملة (في الفراش). وقد وصل الأمر بزينب بنت جحش التي أرسلتها زوجات الرّسول لمناقشته في الأمر أن سبّت عائشة بحضوره[1]. وتفيد الرّوايات أيضاً أنّ محمّداً تأذّى من نسائه إلى حدّ أنّه اعتزلهنّ. وفي رواية بسند عائشة أنّ سبب هذا التأذّي ردّ زينب هديّة الرّسول لعدم رضاها بنصيبها، فأقسم بهجرهنّ شهراً[2]، فمكث تسعاً وعشرين ليلة ثمّ دخل عليهنّ[3].

وهنالك رواية لابن عبّاس تقول إنّ الرّسول اعتزل نساءه تسعاً وعشرين ليلة بسبب إفشاء حفصة حديثاً إلى عائشة يخصّ وطء محمّد جارية في يوم حفصة وفي دارها. وقد طلب منها التكتم على ذلك فلم تفعل. وفي هذا الإطار نزلت آية «التخيير» حسب رواية الزّهري بسند عائشة. لقد دعا القرآن نساء محمّد للتخيير بين البقاء معه وبين الطلاق. وحذرهنّ من ارتكاب الفاحشة لأنّ عقابهنّ في هذه الحالة سيكون مضاعفاً. وفي المقابل وعدهنّ خيراً إن بقين معه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ

(١) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص٣١٥.
(٢) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦.
(٣) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧؛ البخاري، صحيح، كتاب النكاح، باب هجرة النبيّ نساءه في غير بيوتهنّ، ج٦، ص ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الله وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ الله أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً، يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيراً﴾[1].

وإلى ذلك كانت نساء محمّد وخاصّة الصّغيرات والجميلات منهنّ (عائشة، أمّ سلمة، زينب بنت جحش، جويريّة، صفيّة بنت حيّ) عرضة للإزعاج كلما خرجن إلى المدينة. وكان خصوم محمّد يثيرون حولهنّ الإشاعات ويتحرّشون بهنّ[2]. وقد وصل الأمر في فترة لاحقة إلى التشكيك في سيرة بعضهنّ خصوصاً عائشة التي اتهمت بالزّنا بعد غزوة «بني المصطلق»[3]. أرّق كلّ ذلك محمّداً وخصوصاً قضيّة عائشة التي كادت أن تؤدي إلى مواجهة بين القبائل في المدينة. ولم ينفرج الأمر إلاّ بتدخّل السّماء التي برّأت عائشة[4].

لقد واجه محمّد على المستوى الشخصّي العائلي مشاكل كثيرة بعد موت خديجة. وهي مشاكل اجتماعيّة طبيعيّة في ظلّ زواج تعدّدي. إنّ صفته كنبيّ ورسول وما كانت تضفي عليه من هالة قدسيّة لم توفّر عليه تلك المشاكل لأنّ الاجتماعي، الحيّ، الملموس، يبقى في الحقيقة أقوى من كلّ قالب ديني. لقد وصل الأمر بعائشة أنْ قالت له: «.. ما

(١) سورة الأحزاب ٣٣/ ٢٨ ـ ٣٠. راجع حول أسباب اعتزال الرّسول أزواجه: البخاري، صحيح: كتاب تفسير القرآن، ج٥ ص ٢٢ ـ ٢٣؛ تفسير الطّبري، ج٢١، ص ص ١٥٥ ـ ١٥٩.

(٢) ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص١٧٤.

(٣) انظر «حديث الإفك» في تاريخ الطبري، ج٢، ص ص ٦١٠ ـ ٦١٦.

(٤) سورة النور ٢٤/ ١١ وما بعدها.

أرى ربّك إلاّ يُسارع في هواك..»[1] عندما نزلت «تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ»، تشرّع له العلاقة بمن يريد (زواجه من زينب بنت جحش)، وبعد أن كانت عائشة عبّرت عن ضيقها وتعجّبها من اللاتي يعرضن أنفسهنّ دون حياء على «رجل» (تقصد الرّسول). وقد كانت كل المشاكل التي اعترضت محمّداً في حياته العائليّة سبباً في بعض الأحيان لنزول آيات سيكون لها الأثر العميق على وضع النّساء المسلمات. سيستغلّها الفقهاء والحكّام لإنزال المرأة إلى الدّرك الأسفل، ونعني هنا خصوصاً آية «الحجاب»[2] الذي تحوّل إلى «حجبٍ» للمرأة حتى عن الشمس والهواء والحياة.

وإنّنا لنتساءل هنا، رغم ما في السّؤال من مجازفة، كيف كانت ستكون الأمور لو عاشت خديجة؟ إنّنا نعرف أنّ الآيات المنظّمة للحياة الاجتماعيّة كانت لها أسبابها، أي أنها جاءت ردّاً على وقائع اجتماعيّة تقدّم لها أجوبة، وتقنّن السّلوك الواجب اتباعه. فلو عاشت خديجة، هل كان محمّد سيعدّد زوجاته بحكم موقعه الجديد: النبيّ والرّسول ورئيس الدّولة ذو النّفوذ الكبير؟ هل كان سيحرّره هذا الوضع من الوزن المعنوي لخديجة؟ أم أنه كان سيظلّ أُحادي الزواج؟ وفي هذه الحالة بأي وجه كانت ستظهر بعض التشريعات؟

إن هذه الحياة الجديدة لمحمد بمشاكلها واضطراباتها لم تنسِه، في حقيقة الأمر، خديجة. وكأننا بها بقيت بالنسبة إليه رمزاً شامخاً لتلك

---

(١) البخاري، صحيح، كتاب تفسير القرآن، سورة الأحزاب، باب ٧ ـ ٨، ص٢٤.

(٢) سورة الأحزاب ٥٩/٣٣. انظر عن أسباب وحيثيات فرض الحجاب على المسلمات: تفسير الطبري، ج٢٢، ص٤٥؛ صحيح البخاري، ج٣؛ ابن سعد، ج٨.

الحياة العائلية الهادئة والمستقرة التي قضاها معها والتي لم تكن تتقاذفها الغيرة ولا محاسبة الضرائر و«مؤامراتهن». كان محمد في أكثر من مناسبة يدعو خديجة. ومن أهمّ ما ذكر من أحاديث حول خديجة تعكس علاقة محمد بها ما روته عائشة إذ قالت: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن عليها الثناء. فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة. فقلت: هل كانت إلا عجوزاً لقد أخلف الله لك خيراً منها؟ فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: لا والله ما أخلف الله لي خيراً منها. لقد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني أولادها إذ حرمني أولاد النساء. قالت: فقلت بيني وبين نفسي لا أذكرها بسوء أبداً»[1].

إن محمّداً يذكّر في هذا الحديث بمناقب خديجة وأفضالها عليه، فهي تأتي على رأس زوجاته. بل إنهن لا يُقارَنَّ بها. إنها المثال الأعلى الذي تجمعت فيه كل الفضائل حتى إنه اعتبرها، في حديث رُفع إليه، مع مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وفاطمة ابنته «أكمل النساء»[2]. ويستخلص من الحديث أنها أكبر منزلة من عائشة التي نعلم مبلغ وَلَهِ محمد بها. فهي، وإنْ برزت من بين النساء، تبقى قابلة للمقارنة بهن.. : «وفضلُ عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[3]. وفي حديث آخر رُفع إليه، ميَّز خديجة مع مريم أم عيسى عن كل نساء

(١) ابن الجوزي، أحكام النساء، ص٢٢٧؛ ابن عساكر، كتاب الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين، ص٥٦.
(٢) ابن عساكر، المصدر نفسه، ص٥٧.
(٣) البخاري، صحيح، ج٦، ٢٠٥.

العالمين: «خير نسائها مريم (بنت عمران)، وخير نسائها خديجة بنت خويلد عليها السلام»[1]. بل إنه يروى عن عائشة أنها قالت: «ولقد سمعته (أي الرسول) يقول: كانت خديجة خير نساء العالمين»[2].

وإذا ما أردنا أن نبحث عن أسباب التميز الذي حظيت به خديجة وخصوصاً عن العلاقة الممكنة بينها وبين مريم، فقد تكون برأينا في أوجه الشبه القائمة بين المرأتين. فمريم «الطاهرة» اصطفاها الله حسب القرآن لتأتي بنبيّ، وخديجة «الطاهرة»، كما كان يقول عنها العرب «في الجاهليّة» وكما لُقّب بها بنو بنتها هند: «بنو الطاهرة»، اصطفاها الله حسب "": ـ ايضاً لتكون زوجة لمحمّد، تعوّض له عن يتمه وفقره وتشدّ أزره في الرّسالة. وبعبارة أخرى، فكأنّنا بخديجة أتت روحياً بالنبيّ، فكانت ولادة محمّد النبيّ التي اصطفاها الله لتكون كذلك. الولادة هنا بالمعنى الرّوحي وليس بالمعنى الحسّي. ومن هذه الزاوية فحتّى ولادة عيسى، التي لم تكن عاديّة، يغلب عليها الجانب الرّوحي القدسي. فكأنّنا بها ولادة روحيّة قدسيّة أكثر منها ولادة ماديّة.

لا نعتقد أنّ هذه الصّورة الواردة في الحديث صورة عفويّة: ثلاث نساء كنّ وراء ثلاثة أنبياء رسل: آسية وإنْ لم تكن الأمّ الطبيعيّة لموسى، فقد كانت منقذته من الهلاك، اصطفاها الله لذلك وحنت عليه حنان الأمّ، وكذلك مريم ثمّ خديجة. لقد سما محمّد بخديجة إلى مرتبة «أمّهات الأنبياء» الطبيعيات أو الرّوحيات، وقد جاء على لسان عائشة قولها: «وتزوّجني بعدها بثلاث سنين وأمره ربّه عزّ وجلّ أو جبرائيل عليه السّلام

---

(١) البخاري، المصدر نفسه، ج٤، ص٢٣٠.

(٢) البلاذري، المصدر نفسه، ج١، ص٤١٢.

أن يبشّرها ببيت في الجنّة متنصب لا صخب فيه ولا نصب»[1].

وقد ظلّ محمّد إلى آخر حياته يُعظّم خديجة حتى إنّه كان إذا ذبح الشّاة يقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة»[2]. كما بقيت له في ذهنه صورة إيجابية عن ورقة، ابن عمّ خديجة. بل إنّ عدداً من الأحاديث المرفوعة إليه يؤكّد أنّ مقام ورقة في الجنّة: «رأيت ورقة في بطنان الجنّة عليه السندس»؛ «رأيت ورقة على نهر من أنهار الجنّة...»؛ «رأيت لورقة جنّة أو جنّتين». وقد جاء الحديث الأخير حسب الرّواة عندما علم محمّد بأنّ رجلاً سبَّ ورقة، فنهى عن سبّه وذكر هذا الحديث. وعن عائشة أنّ خديجة سألت النبيّ عن ورقة بن نوفل، فقال: «قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض»[3]. ومن الملاحظ أنّ مآل ورقة الحنيف الذي لم يسلم وإن كان عبّر عن كونه سيدافع عن محمّد لو أدرك نبوّته، أفضل من مآل أبي طالب، عمّ الرّسول، رغم ما بذله من جهد وتضحيات في سبيل محمّد حتى يحميه من أذى قريش. فكونه مات وهو على «دين آبائه»، جعل من مقامه يوم القيامة جهنّم: «نعم، ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النّار». قال محمّد ذلك في حديث رُفع إليه ردّاً على عمّه أبي لهب الذي جاء يسأله إن كان مصير أبي طالب النّار أم الجنّة[4].

وفيما عدا الأحاديث، فإنّنا لا نجد ذكراً مباشراً لخديجة في القرآن. لقد أُشير إليها فقط بصفة غير مباشرة في الآية ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً

---

(1) البخاري، صحيح، ج٤، ص٢٣١؛ البلاذري، المصدر نفسه، ص٤١٢.
(2) البخاري، المصدر نفسه، ج٤، ص ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.
(3) ابن حجر، المصدر نفسه، ج٣، ص٦٣٥.
(4) ابن سعد، الطّبقات، ج١، ص١٤١.

فَأَغْنَى﴾، شأنها شأن عبد المطلب وأبي طالب المشار إليهما في الآية ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾. وكما هو واضح في كلتا الحالتين، فإن عمليّة الإغناء والإيواء تمّت برعاية «الله»، إذ إنّه هو الفاعل. كما أنّنا لا نجد ذكراً لخديجة في أسباب نزول بعض الآيات. ومن المعلوم أنّ عائشة وزينب الزوجتين اللاحقتين لمحمّد ذُكرتا في القرآن ولو دون تسميتهما. كما أنّ زوجته الأخرى، أمّ سلمة، ذكرها المفسّرون في تطرقهم إلى أسباب نزول بعض الآيات. وقد كنّ ثلاثتهنّ يفتخرن بهذه الحظوة الإلهيّة. لكنّنا لا نعتقد أنّ في ذلك امتيازاً لهنّ على خديجة. فذكر عائشة جاء بمناسبة «حديث الإفك» الذي خلق مشكلة في صلب المسلمين، وأزّم محمّداً أيّما تأزيم، لأنّه شعر بخدش في كرامته وفي شرف أقرب المقرّبين إلى قلبه ومسّ بأصدق أصدقائه أبي بكر، والد عائشة. فنزل الوحي ليعيد الاعتبار لهؤلاء جميعاً.

أمّا ما نزل في زينب بنت جحش فقد كان على أثر تململ شمل الصّحابة أنفسهم بسبب زواج محمّد بها. والحال أنّها كانت زوجة ابنه بالتّبني زيد بن حارثة، وهو ما كان محرّماً في «الجاهليّة». فأحلّ القرآن ذلك الزّواج وحرّم التّبني: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾[١]. أمّا أمّ سلمة فيروى أنّها سألت محمّداً لماذا يتوجّه القرآن للرّجال فقط؟[٢] فنزلت السورة اللاحقة لهذا الحديث مخاطبة الذكور والإناث[٣]. وما من

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣/ ٤. وورد في الحديث: «الولد للفراش وللعاهر الحجر». وتذكر أنّ أوّل من حكم أنّ «الولد للفراش» في الجاهليّة هو أكثم بن صيفي، حكيم العرب، ثم جاء الإسلام بتقريره: جوّاد علي، المرجع نفسه، ج٥، ص٥٦٠.

(٢) تفسير الطّبري، ج٢٢، ص١٠.

(٣) ﴿إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات..﴾ سورة الأحزاب ٣٣/ ٣٥.

شكّ أنّ في سؤالها جرأة وفطنة إذ جلب انتباهها «الطابع الذكوري» إنْ شئنا لما نزل من القرآن.

إنّ خديجة لم تتعرّض في حياتها مع محمّد إلى إشكالات كانت تفرض «تدخّل» جبرائيل، بل إنّها عندما ذُكرت على لسانه في بداية البعث فليُقرئها السّلام حسب الرّوايات. كما أنّ المرحلة التي عاشتها معه كانت مركّزة في الأساس على الدّعائم الأولى للدين الإسلامي: مكارم الأخلاق، القيامة والحساب والتوحيد.

وحتى في الفترة المدنيّة لم يكن ثمة دواع مباشرة لنزول الوحي في خصوص خديجة.

وممّا لا شكّ فيه أنّنا حين نُراجع كتب التاريخ الإسلامي، نجد ذكراً كبيراً لعائشة مقارنة بخديجة من بين زوجات الرّسول. فقد كانت أكثرهنّ حضوراً بعد موت محمّد في الحياة الدّينيّة للمسلمين (رواية السّنة)، وفي الحياة السّياسيّة (دورها في الفتنة: معركة الجمل). لكنّنا في الحقيقة نعتبر أن دور خديجة كان بمعنى ما أخطر في علاقةٍ بالإسلام. فقد كانت صاحبة محمّد في أحرج فترة، فترة الظهور والإعلان عن المبادىء التأسيسيّة والصّراع من أجل فرضها وتثبيتها في المجتمع والحيلولة دون إجهاضها قبل أن تنبت وتأخذ مكان القديم؛ كان دور خديجة في هذا الطّور العقائدي الهام أساسيّاً كما سبق أن بيّنّا.

لكنّ السّؤال الذي يبقى قائماً: لماذا لا نجد أثراً لمكانة خديجة هذه كامرأة في التشريع الإسلامي؟ لماذا لم تتغلّب الخمس وعشرون سنة من الزواج الأُحادي لمحمّد بخديجة على تقليد تعدّد الزّوجات، وغير ذلك من الأشياء (مثال حكم ضرب النّساء)؟

إنّ محمّداً عظّم خديجة كشخص/ فرد وليس كجنس (جنس النّساء). وفي هذا المستوى الثاني كانت الغلبة لموازين القوى الاجتماعيّة، أي للتقاليد والعادات السّائدة، على المشاعر الفرديّة وعلى المطالب الفرديّة في المجتمع المسلم بالمدينة أيضاً. إنّ محمّداً ذاته، المتعدّد الزوجات، الذي استثناه القرآن من التقييد الوارد في سورة النساء (عدم تجاوز أربع نساء عدا ملك اليمين)، قد جاش صدره حين علم باحتمال تزوّج عليّ على ابنته فاطمة بامرأة ثانية. إنّ محمّداً الأب، الذي كان يحبّ فاطمة حبّاً استثنائياً ولا يريد أن يكدرها شيء كتقاسم زوجها مع امرأة أخرى مثلاً، أعلن من فوق المنبر حسب حديث رُفع إليه: «ألا إنّ بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علياً. ألا وإني لا آذن، ثمّ لا آذن، ثم لا آذن. إنّما فاطمة بضعة منّي، بريبني ما رابها»[1]. ولا شكّ أنّ ما راب محمّداً الأب وفاطمة البنت قد راب غيره من الآباء وغيرها من البنات، ولكنّها العادات والتقاليد التي كان يتكوّن منها الوعي الاجتماعي في ذلك العصر، والتي لئن شعر المرء بوطأتها إذا مسّته مباشرة، انسجم معها إذا كان المستفيد منها.

لقد زحزح القرآن بعض العادات التي كان المجتمع وقتها مؤهّلاً لتجاوزها، وخفّف بالتالي من الاضطهاد المسلّط على المرأة في بعض المجالات، فحرّم الوأد ومكّن المرأة من نصيب من الإرث ومن الشهادة بشرطٍ، وألغى الإكراه على البغاء وحرّم العضل... ولكنّه لم يزحزح الرّاسخ والسائد من العادات والتقاليد الذكوريّة، بل إنّه سيحوّل عدداً منها إلى أحكام. عندما اشتكت امرأة لمحمّد أنّ زوجها الصحابي ضربها،

---

(1) البلاذري، المصدر نفسه، ج1، ص403.

كان محمّد على استعداد لتسليط العقاب عليه وفقاً لمبدأ القصاص. لكنّ الصّحابة سيتململون وسيتدخّل عمر لكي ينبّه محمّداً إلى خطورة موقفه على المجموعة. وقتها تنزل الآية لتشرّع ضرب الرّجال للنّساء[1]. فينفجر المكبوت لدى الرّجال ويتعرّض في الليلة ذاتها عدد كبير منهنّ للضّرب، فتتظاهر في الغد العشرات منهنّ أمام منزل محمّد[2].

تذكر الروايات أنّ محمّداً قال للمرأة المتضرّرة: «أردتُ شيئاً وأراد الله شيئاً آخر». أراد محمّد شيئاً يتماشى مع نزعته إلى المساواة التي وعد بها الناس، وأراد المجتمع الذي يسوسه شيئاً آخر يتماشى مع البنى الاجتماعيّة والتقاليد السائدة ومع الحالة التي تعوّدت المرأة أن تكون عليها، أي خاضعة للرجل. وقد كان ضرب المرأة ممارسة شائعة في الجاهليّة كوجه من أوجه ذلك الخضوع. فجاء القرآن ليقنّن السائد ويسمح للزوج بتأديب زوجته إذا خاف نشوزها. أمّا في حالة نشوز الزوج، فالحلّ في الصلح بينهما دون عنف أو ضغط!!

وإلى ذلك فضّل القرآن الذكر على الأنثى في أكثر من موضع، وشرّع له تعدّد الزوجات فضلاً عن التسرّي، وخصّه بحقّ الطّلاق، ومتّعه بالقوامة. وبالتالي، فإنّ موقع المرأة بالنسبة إلى الرجل ظل، من حيث الجوهر، على حاله، أي بقيت تابعة وخاضعة لسلطان الرجل. إن سلطة الرجل على المرأة لم تُمسّ في الأساس وإنْ خفّف القرآن من الاضطهاد التي هي عُرضة له.

إن شخصية محمد، زوج خديجة و«أبي البنات»، ستظهر أساساً لا

---

(١) سورة النساء ٤/ ٣٤.

(٢) ابن سعد، المصدر نفسه، ج٨، ص٢٠٥

في التشريع الذي ظل أبوياً، ذكورياً، وإنما في لطفه ورقته مع نسائه وبناته، اللاتي كان يكره ضربهن والإساءة إليهن كما يظهر ذلك فيما أوصى به دائماً من ضرورة الإحسان للنساء. وكان من بين أفعاله الأخيرة أن أوصى المسلمين بنسائهم خيراً.

خاتمة

إنّ خديجة التي حاولنا أن نبرزها ونُحلل شخصيتها من خلال هذه الدّراسة، هي في الحقيقة غير خديجة التي تذكرها كتب الأخبار والتاريخ وبعض الدراسات المؤدلجة: خديجة التاجرة التي تزوّجت محمّداً ووهبته الأولاد وساندته في محنته.

إنّ خديجة، إذا ما نظرنا إليها نظرة المؤرّخ الذي يقيّم المعطيات المتوافرة لديه تقييماً موضوعيّاً، تتبدّى لنا أهمّ ممّا ذُكر.

إنّ ما أُهمل في شخصيّة خديجة هو بالذات تكوينها الرّوحي - المعتقدي؛ فهي تبدو لنا على استعداد لتقبّل دين توحيدي يتجاوز وثنيّة قريش. وما من شكّ في أنّ المحيط الذي عاشت فيه، ومن ضمنه ورقة بن نوفل، كان له تأثير في ذلك.

إنّ امتهان خديجة للتجارة لهو من العناصر التي كان لها دور في تكوين شخصيتها. فقد فتح عقلها، ووصلها بالمجتمع، ودرّبها على المعاملات ومعرفة النّاس، ومكّنها من الاطلاع على أخبار العرب، علاوةً على ما وفّره لها من استقلاليّة ماديّة وقدرة على اتخاذ القرار في ما يخصّ حياتها الشخصيّة.

خديجة صاحبة هذه الشخصيّة هي التي ستقرّر وحدها الزّواج بمحمّد الذي يصغرها سنّاً واليتيم الفقير. وهي التي - خلافاً لكل العادات والتقاليد السائدة في قريش - ستعرض عليه هذا الزّواج.

ولا نعتقد أنّ علاقتها به طوال الفترة التي سبقت البعث كانت تقف عند حدود العلاقات العائليّة البحتة. إنّنا نتصوّرها حبلى بالأحاديث والحوارات حول واقع قريش (وربّما العرب) الرّوحي والمعتقدي والأخلاقي والاجتماعي، وربّما استخلصا منها حاجته إلى ثورة دينيّة تكنّس ما كانا يريانه «باطلاً».

إنّ ردّ فعل خديجة على أوّل تباشير البعث ليس فيه أيّ لبس، إذ أكدت لمحمّد أنّ وقت النبوّة قد جاء وأن ليس عليه أن يشكّ في ذلك، وأخذته إلى ورقة - «المرجع» - ليعيد على مسامعه القول نفسه. ومن تلك اللحظة وخديجة لم يداخلها أي شكّ في ما جاء محمّداً وفيما ينبغي أن يقوم به؛ كانت تقابل تردّده وإحباطه وانهياره أحياناً، سواء بسبب الخوف من عبء الرّسالة أو الضّغوط والمظالم المسلّطة عليه من قِبَلِ قومه، بصلابة روحيّة وعقليّة كبيرة؛ كانت تمتاز ببُعد نظر، فلا تخفي يقينها بأنّه سينتصر، لذلك كانت تدعوه إلى الثبات والمثابرة.

وستبرز هذه الرّوح لدى خديجة يوم الجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات من السّريّة: خديجة، الشّخصية الوقورة، تخرج - حسب الرّوايات - إلى الكعبة وتصلي أمام الملأ وراء محمّد وعليّ. وحينما تتخذ قريش قرار الحصار ضدّ بني هاشم وبني المطلب، ستكون خديجة الأسديّة من بين أوائل المغادرين، تاركين مكة في اتجاه الشّعاب. وهناك لن تدّخر جُهداً لإيجاد الحلول لإطعام المحاصرين، مسلمين ووثنيّين، الذين تجمعهم الحميّة القبليّة.

ولمّا تُوفيت خديجة وفارقت محمّداً، فإنما تركت الإسلام وهو في عامه العاشر، وقد بدأ عوده يصلب، وكان من الصّعب أن تعود الأمور

إلى الوراء. فكانت قد خاضت مع محمّد برباطة جأش كبيرة مرحلة التأسيس العقائدي للإسلام، وهي مرحلة حاسمة: التوحيد، مكارم الأخلاق، البعث والحساب، أي القواعد الأساسيّة للعقيدة الإسلاميّة التي ستبني عليها قيم الدّولة الجديدة والتنظيم الاجتماعي الجديد.

ولم تكن خديجة من خلال مسلكيتها مع محمّد لتتصرّف بعقليّة التاجرة بما فيها من سلبيات: الحساب المباشر، منطق الربح والخسارة، الأنانيّة، والنزوع إلى المساومة. بل إنّها استغلّت ما غرسته فيها التجارة من جوانب إيجابيّة: الانفتاح، الصّلة بالنّاس، المعارف، روح التغيير... إلخ، لتدعم الدّعوة ماديّاً ومعنويّاً.

إنّ تمسّك محمّد بخديجة وإجلاله لها لا نعتقده مؤسّساً على اعتبارات عائليّة ضيّقة، بل نرجّح أنّه كان يرى فيها عنصراً حاسماً في نجاحه، على الأقلّ في الفترة التأسيسيّة الأولى للدّين الإسلامي. فلا غرو والأمر كذلك أن يُماثلها بمريم أمّ عيسى.

كانت علاقته بها تتداخل فيها عديد المستويات: كانت له الزّوجة، كما كانت بالنسبة إليه بمثابة الأمّ التي احتضنته ودثّرته ورعته وشجّعته. فكأنّها بثقته ليكون نبياً يحمل الرّسالة ويذود عنها، مثلما أعطت مريم الحياة لعيسى النبيّ، ومثلما أنقذت آسية زوجة فرعون موسى من قبل ليعيش للرّسالة.

«دثّريني... يا خديجة»، تلك هي الصرخة التي أطلقها محمّد في بداية البعث حينما فاجأه جبرائيل بظهوره وغتّه، مشحونة بكل ما في وجدانه من مشاعر متعدّدة الأبعاد تجاه خديجة! إنّها صرخة الميلاد التي ستهزّ كيان العرب والمنطقة والعالم!

المصادر والمراجع

I ـ المصادر العربية :

- القرآن
- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري) ت ٦٣٠هـ، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البناء، محمد أحمد عاشور، محمود عبد الوهاب قايد، ٤ أجزاء، القاهرة، الشعب، ١٩٧٠.
- ابن ثابت (حسان) ت حوالى ٤٠هـ، ديوان حسّان بن ثابت، حقّقه وعلّق عليه وليد عرفات، بيروت، دار صادر، ١٩٧٤.
- ابن حبيب (أبو جعفر محمد) ت ٢٤٥هـ، المحبر، تحقيق إيلزه ليختن شتيتر، بيروت، دار الآفاق الجديدة، د.ت.
- ابن الجوزي (أبو الفرج جمال الدين) ت ٥٩٧هـ، كتاب أحكام النساء، تحقيق زياد حمدان، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٨.
- ـــ، صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٩.
- ابن حجر (شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي) ت ٨٥٢هـ، الإصابة في تمييز الصحابة، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٠.
- ابن رستة (أبو علي أحمد بن عمر) ت ٣٠٠هـ، الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٩٦٧.
- ابن سعد (محمد بن سعد بن مانع البصري) ت ٢٣٠هـ، الطبقات الكبرى، ٩ أجزاء، بيروت، دار صادر، ١٩٥٧.
- ابن عبد البر (النمري القرطبي) ت ٤٦٣هـ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، بهامش كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني.
- ابن عساكر (أبو منصور عبد الرحمن بن محمد) ت ٦٢٠هـ، كتاب الأربعين

في مناقب أمهات المؤمنين، بيروت، دار الفكر المعاصر، ١٩٨٦.

- ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم) ت ٢٧٦هـ، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، مصر، دار المعارف، ١٩٦٩.
- ابن كثير (الحافظ) ت ٧٧٤هـ، البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٧٩.
- ابن الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد) ت ٢٠٤هـ، الأصنام، تحقيق أحمد زكي، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥.
- ــــ، جمهرة النسب، تحقيق محمود فردوس العظم، ٣ أجزاء، دمشق، دار اليقظة العربية، ١٩٨٦.
- ابن منظور (جمال الدين)، ت ٧١١هـ، لسان العرب، ١٥ جزءاً، بيروت، دار صادر، ١٩٥٦.
- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) ت ٢١٨هـ، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- ابن النديم (أبو الفرج محمد الوراق البغدادي) ت ٣٨٥هـ، الفهرست، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٨.
- الأزرقي (أبو الوليد محمد) ت ٢٢٣هـ، أخبار مكة، ليبزيغ، ١٩٥٨.
- الأصفهاني (علي بن الحسين بن محمد أبو الفرج) ت ٣٦٥هـ، الأغاني، ٢٥ جزءاً، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣.
- الآلوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، القاهرة، دار الكتاب العربي، د.ت.
- البخاري (أبو عبد الله بن إسماعيل) ت ٢٥٦هـ، الصحيح، ٩ أجزاء في ٣ مجلدات، اسطنبول، د.ت.
- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) ت ٢٧٩هـ، أنساب الأشراف، الجزء الأول، تحقيق محمد حميد الله، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٩.
- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد)، ت ٤٢٩هـ، ثمار القلوب،

القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٦٥.

- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) ت ٢٥٥هـ، الحيوان، ٧ أجزاء، بيروت، ١٩٦٩.
- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) ت ٧٤٨هـ، سير أعلام النبلاء، تحقيق صلاح الدين المنجد، مصر، دار المعارف، ١٩٥٧.
- الرازي (محمد فخر الدين) ت ٦٠٦هـ، التفسير الكبير، طهران، دار الكتب العلمية، د.ت.
- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) ت ٣١٠هـ، تاريخ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ١١ جزءاً، بيروت ١٩٦٧.
- ــ، جامع البيان في تفسير القرآن، ٣٠ جزءاً، بيروت، دار المعرفة، ط٢، ١٩٨٠.
- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد) ت ٦٧١هـ، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٥٢.
- المجلس الإسلامي الأعلى بمصر، المنتخب في السنّة النبوية. القاهرة، مطابع الأهرام بكورنيش النيل، ١٩٩٢.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسن بن علي) ت ٣٤٦هـ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق قاسم الشمّاعي الرفاعي، بيروت، دار القلم، ١٩٨٩.
- مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري) ت ٢٦١هـ، الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مصر، عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٥.
- المصعب الزبيري (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله) ت ٢٣٦هـ، كتاب نسب قريش، تحقيق إ. ليفي بروفانسال، مصر، دار المعارف، د.ت.
- الواحدي (أبو الحسن علي بن أحمد) ت ٤١٠هـ، أسباب النزول، مصر، المطبعة الهندية، ١٨٩٨.
- الواقدي (محمد بن عمر) ت ٢٠٧هـ، المغازي، تحقيق مارسدن جونس، لندن، ١٩٦٦.

II ـ المراجع العربية :

- بالحاج صالح العايب (سلوى)، المسيحية العربية وتطوراتها: من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٧.
- جعيط (هشام)، الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، بيروت، دار الطليعة، ط٣، ١٩٩٥.
- ـــ، الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي، بيروت، دار الطليعة، ط٢، ١٩٩٠.
- دروزة (محمد عزت)، سيرة الرسول: صورة مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٤٨.
- شعبان (محمد عبد الحي محمد)، صدر الإسلام والدولة الأموية، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧.
- عبد الباقي (محمد فؤاد)، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٨.
- العشري (عبد السلام)، خديجة بنت خويلد، القاهرة، ١٩٦٠.
- علي (جوّاد)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠ أجزاء، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٧٦.
- عمر (عبد المنعم محمد)، خديجة أم المؤمنين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.
- هيكل (محمد حسين)، حياة محمد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٦.
- وات (مونتغمري)، محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، بيروت، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٥٢.

III ـ المراجع باللغات الأجنبية :

- Andrae (Tor), *Mahomet. Sa vie et sa doctrine*, trd. Fran., Paris, 1945.

- Crone (Patricia), *Meccan Trade and the Rise of Islam*, Prince-

ton, N.J., 1987.

- Farès (Bichr), *L'honneur chez les Arabes avant l'Islam*, Paris, Maisonneuve, 1932.

- Lammens (Henri), *L'Arabie occidentale avant l'hégire*, Beyrouth, 1928.

- Marnissi (Fatma), *Le Harem politique*, Paris, Albin Michel, 1987.

- Minces (Juliette), *Le Coran et les femmes*, Paris, 1997.

- Rodinson (Maxime), *Mahomet*, Paris, 1961.

- Wellhausen (J), *Reste Arabischen Héidentumus*, Berlin - Leipzig, 1927.

IV ـ المقالات باللغات الأجنبية:

- Charles (Amjad-Ali), «Women Leadership in Islam», *Al-Mushir*, vol. 31, n°4, 1989, pp. 123 - 139.

- Chelhod (Joseph), «Du nouveau à propos du "Matriarcat" Arabe», *Arabica*, 28 (1981), pp. 71 - 106.

- Daiber (H), «Ru'ya et Nubuwwa», *E.I.*, T. VII, pp. 664 - 668.

- Jurgi (Edward), «Khadija, Mohamed's First Wife», *The Moslem World*, 26 (1936), pp. 197 - 199.

- Monnot (G), «Salat», *E.I.*, T. VIII, pp. 957 - 965.

- Watt (W. Montgomery), «Khadija», *E.I.*, T. IV, pp. 930 - 931.

١٢٧١ / ٩٩ / ٢٠٠٠